أشهر المعارك البحرية في التاريخ القديم والحديث

على الجوهرى

مكتبة القرآن



علی الجوهری

أشهر المعارك البحرية في التاريخ القديم والحديث

مكتبة القرآن

الكتاب : أشهر المعارك البحرية

المؤلف : على الجوهرى — تصميم غلاف : إبراهيم محمد إبراهيم

رقم الإيداع : ١٩٠٠٦ / ٢٠٠٣ — الترقيم الدولى : 1 - 313 - 250 - 977

الناشر

مكتبة القرآن
للطبع والنشر والتوزيع
٤٠ شارع رشدى - عابدين - القاهرة
تليفون : ٣٩١٨٦٩١ - ٣٩١٧٣٣٢ فاكس : ٣٩٣٧٣٢٦

● ● ● ● ●

توزع منشوراتنا بالمملكة العربية السعودية لدى وكيلنا الوحيد مكتبة الساعى للنشر والتوزيع

الرياض - هاتف : ٤٣٥٢٧٦٨ - ٤٣٥١٩٦٦ فاكس ٤٣٥٥٩٤٥ جدة هاتف : ٦٥٣٢٠٨٩ - ٦٥٢٤٠٩٥ فاكس : ٦٥٢٤١٨٩

طبع بمطابع ابن سينا القاهرة ت : ٣٢٠٩٧٢٨

Web site : www.alkoran-eg.com E-mail : info@alkoran-eg.com

مقدمة

عرف العالم طريقه إلى الصراعات منذ أقدم العصور وأدت هذه الصراعات إلى نشوب المعارك برًا وبحرا ، ثم ظهرت المعارك الجوية بعد أن عرف الناس سلاح الطيران الحربى .

وكانت المعارك تتم باستخدام أسلحة ومعدات بدائية ثم أخذت تتطور شيئا فشيئا مواكبة بذلك تلك الطفرات التكنولوجية التى حدثت فى جميع المجالات .

ومن خلال الأبحاث فى أوراق التاريخ ، وجدت أن هناك مجموعة من المعارك البحرية غيرت مجرى كثير من الأمم ، فرفعت أقواما ، وحطت آخرين .. وهناك أيضا بعض المعارك البحرية التى نشبت لأسباب مضحكة ، ولكنها مع الأسف أودت بحياة كثيرين !

وقد أبرزت المعارك البحرية قدرات بعض الدول على التخطيط والمناورات العسكرية ، بالرغم من الإيحاءات الظاهرية بضعفها النسبى مقارنة بدول أخرى كانت أقوى منها بكثير ولكنها خسرت وانزوت نتيجة التفوق البحرى للدول الأخرى .

وعلى صفحات هذا الكتاب قدمت عرضا لمجموعة من المعارك ذات المواقف والأبعاد المؤثرة فى تاريخ العالم، وقمت بشرح وتوضيح الأسباب والأحداث والنتائج المترتبة على كل معركة ، وذلك منذ فجر التاريخ ومعرفة الإنسان طرق تصنيع الأساطيل البحرية ، وحتى وصلت إلى معارك العصر الحديث .

لقد حاولت الدول العظمى السيطرة على البحار نظرا لخطورة هذه الأماكن فى الهيمنة على مجريات الأمور عبر القارات ، وكان من نتيجة ذلك أن انتقلت السيطرة من دولة إلى أخرى وربما تعود مرة أخرى للدولة السابقة .. وهكذا ، وهو ما حاولت أن أسجله فى هذا الكتاب كمتابعة مطلوبة للأحداث التاريخية .

المؤلف

البر والبحر والجو

لحكمة بالغة خلق الله الأرض وجعل فيها الماء بحارا وأنهارا ، وجعل فوق الأرض السماء سحابا وأمطارا ، وجعل الإنسان خليفة الله في الأرض يعمل فيها تشييدا وإعمارا ، ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد شاءت إرادته أن يعبده البشر طواعية واختيارًا وليس قهرا وإجبارا.

وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ .

(سورة البقرة : **29- 30**)

الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الأرض بكل ما فيها من نبات وحيوان وإنسان ويابس وماء وبكل ما فوقها من سماء . وعندما أخبر الله سبحانه وتعالى ملائكته أنه سيجعل في الأرض خليفة هو آدم -عليه السلام- أبو البشر

﴿ **قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء** ﴾ (البقرة : **30**)

وكأن الملائكة كانت على دراية بما سيكون من بنى آدم من إفساد وسفك للدماء ..

بهذا جرت مشيئة الله – سبحانه وتعالى- فأخبر به الملائكة ، وهو بالأحرى إخبار لنا وبيان وتوضيح إلهي إلى حقيقة مهمة وهى أن سفك الدماء بين البشر من خلال الحروب والقتال بينهم ليس أمرا مستحبا بل هو مكروه منكر بدليل أن الملائكة قد عبروا عما يفيد كراهية ذلك ونكرانه ، ولكن الله –

سبحانه وتعالى- أخبر ملائكته أو بالأحرى أخبرنا أن له -سبحانه وتعالى- في ذلك حكمة بالغة لا تعلمها الملائكة ألا وهى الحكمة الإلهية التي تتمثل في أن الله -سبحانه وتعالى- قد شاءت إرادته أن يكون من البشر من يتجه إلى الإيمان بالله والصلاح وعدم سفك الدماء بغير حق ، ومنهم من يتجه إلى الكفر بالله والإفساد فى الأرض وسفك الدماء بغير حق بناء على اختيار البشر دون أن يجبرهم الله على الإيمان والصلاح ، فمن شاء من البشر فليؤمن ومن شاء فليكفر؛ لأن الله ، كما سبق أن أشرنا ، قد شاءت إرادته واقتضت حكمته أن يُعْبـَد طواعية واختيارا وليس قهرا وإجبارا . وأنَّى للملائكة أن يدركوا هذه الحكمة الإلهية البالغة !

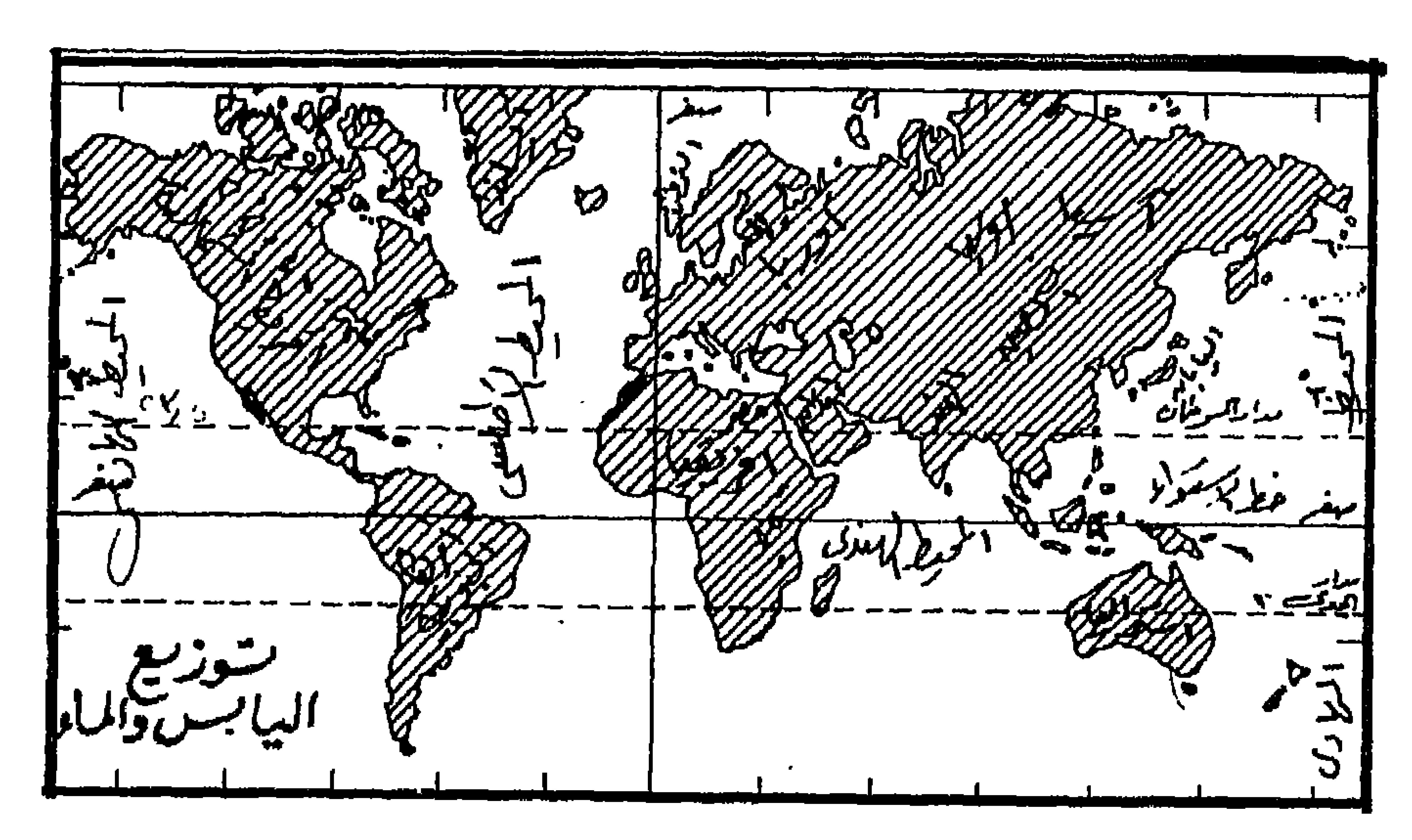
ولنتأمل تعبير الإفساد في الأرض وسَفْكِ الدماء فيها تأملاً جيداً ، فليس الإفساد في الأرض إفسادا تاما وإلا استحالت حياة بني آدم في الأرض لو اكتمل فسادها ، وليس سَفْكُ الدماء سفكا لكل الدماء وإلا هلك البشر ، ولكن المعنى المعقول هو وجود إفساد في الأرض وإصلاح فيها ، وسفك للدماء أحيانا وحفظ للدماء أحيانا أخرى حتى تستمر حياة البشر في الأرض ما شاء الله لها أن تستمر.

وفي الآيتين الكريمتين 29 ، 30 من سورة البقرة إشارة إلى الكون الذي خلقه الله لبني آدم وخلق بني آدم فيه . ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(سورة البقرة:29) وتعبير " ما في الأرض جميعا " يشير إلى أن في الأرض أشياء كثيرة صلبة وسائلة، معادن وغازات ، ونبات وحيوانات ، وفوق الأرض سماوات يتصاعد إليها بخار الماء ليتكثف وينزل من السماء مطرا وماء عذبا هو مصدر المياه العذبة في الأنهار التي تكفل للإنسان والنبات والحيوان إمكانية الحياة كما قَدَّرَ الله الحياة للإنسان والحيوان والنبات . ويحوى الغلاف الجوي الهواء اللازم للتنفس الضروري لحياة النبات والحيوان والإنسان . وهكذا خلق الله لبني آدم في الأرض وفي السماء ما يكفل استمرار الحياة لهم ليؤمن من يشاء ويتبع الصراط المستقيم ولا يفسد في الأرض بل يعمل على إعمارها ، أو ليكفر من يشاء ويحيد عن الصراط المستقيم ويفسد في الأرض ويسفك بعض بني آدم دماء بعضهم الآخر أحيانا في قتال وحروب فردية أو جماعية.

ولا ريب في أن الحرب والقتال بين بعض البشر كان يتم فوق الأرض اليابسة بطبيعة الحال في بداية الأمر ، وكان يتم بين أفراد . بدأ سفك الدماء على الأرض بين قابيل وهابيل ابني سيدنا –آدم عليه السلام– ثم اتسع نطاق الحرب والقتال بين البشر بازدياد عدوهم فوق الأرض عندما أصبحوا أقواما ودولا تضم كل قومية وكل دولة مئات أو آلاف أو ملايين البشر.

وكانت أسلحة الحرب والقتال بدائية بسيطة في بداية الأمر ثم تطورت لتكون أشد فتكا حتى وصلت إلى الصواريخ والقنابل الذرية والهيدروجينية التي تتمثل فيها أفظع وسائل الإفساد في الأرض وسَفْكِ الدماء !

وانتقلت ميادين الحرب من الأرض لتشمل البحر ثم إلى الجو أيضا في العصر الحديث . وإذا كانت الأرض كلها تبلغ مساحتها (510) مليون كيلومتر مربع ، فنحن نجد أن أن نسبة اليابس المئوية هى 29 % من الكرة الأرضية بينما تبلغ نسبة البحار والمحيطات منها 71 % ومن ثم تتضح أهمية البحار والمحيطات . ولا شك أن إحاطة البحار والمحيطات بالأجزاء اليابسة من الكرة الأرضية قد جعلت للحرب البحرية خطرا كبيرا وأهمية كبيرة في تاريخ الحروب البشرية كما سيتضح لنا فيما بعد.

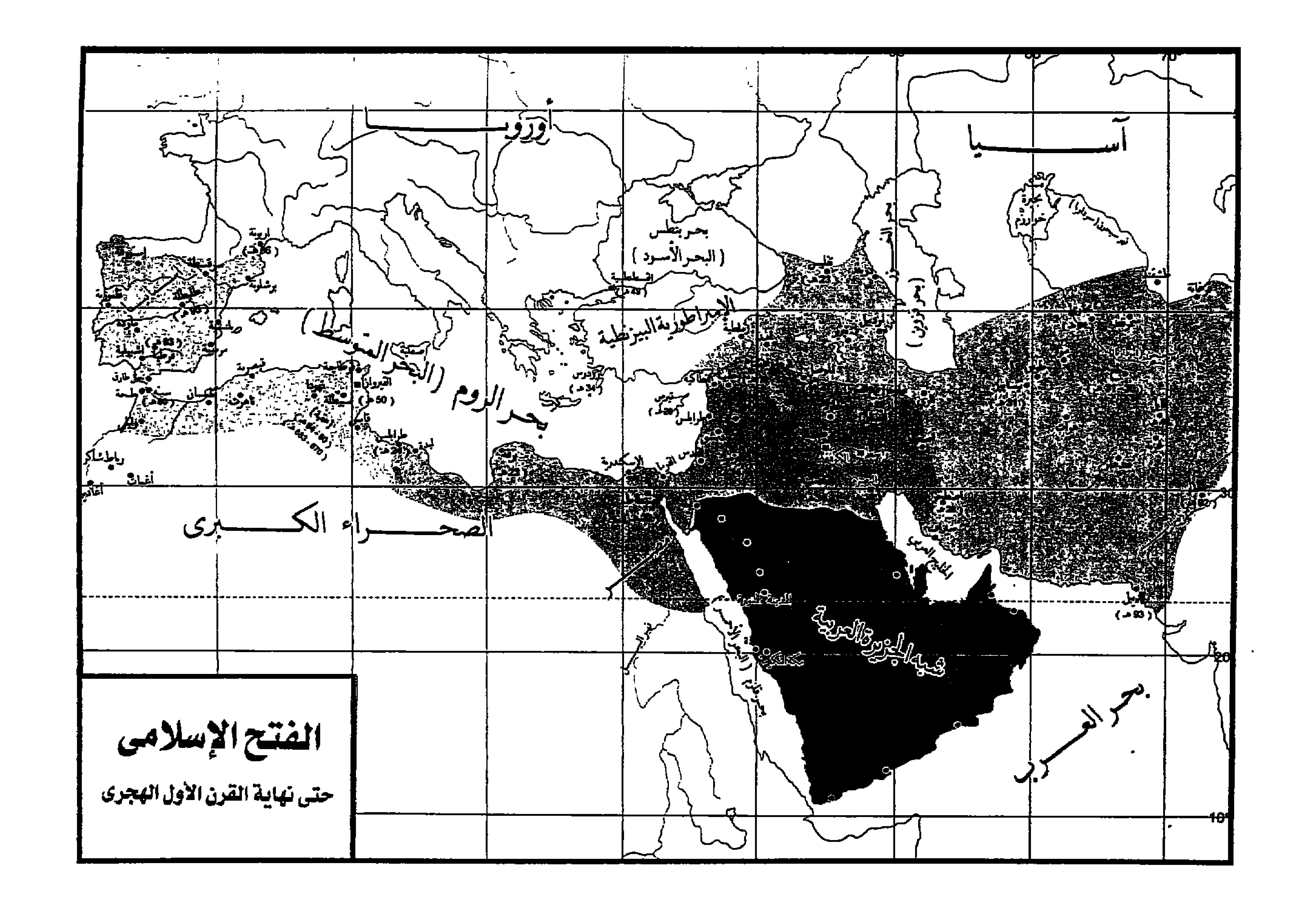


ولا شك في أن المعارك البحرية لم تنشب بين البشر إلا بعد زمن طويل من تكرار الحروب البرية بين البشر ، ولا شك أيضا في أن الحروب البحرية قد بدأت بطرق وأساليب بدائية بالغة البساطة أثناء ممارسة الصيد ، ثم للدفاع عن

الملاحة البحرية والتجارية باستخدام القوارب ذات المجاديف وباستخدام بعض الأسلحة التي سبق استخدامها في المعارك البرية مثل السيف أو الرمح أو الأسهم عندما كان قارب يلتصق بقارب أو مجموعة من القوارب مع مجموعة أخرى من القوارب . وكانت القوارب في البداية لها مجداف واحد أو مجدافان ثم تعددت المجاديف للقارب الواحد وازداد حجمه لتزداد سرعته وليزداد عدد البحارة فوق متن كل قارب.

وإذا كانت الحضارة المصرية القديمة قد نشأت في وادي النيل والحضارة البابلية القديمة قد نشأت حول نهر دجلة ونهر الفرات ، فلقد كان يغلب على المعارك الحربية طابع المعارك البرية . أما حضارة قدامى اليونان فقد نشأت في أثينا وإسبرطة وجزر البحر المتوسط فكان يغلب على حروبها الطابع البحري في التاريخ القديم. ولقد كانت الأطماع الدنيوية هى سبب الصراعات والحروب بين ممالك ودول التاريخ القديم في عصور ما قبل الميلاد وكانت بالغة الضراوة والقسوة من أجل رغبة الملوك في توسيع رقعة دولهم واستعباد الشعوب في الدول الأخرى ما دام ميزان القوى بين الدول يسمح بذلك. حتى بنو إسرائيل مارسوا الحرب ضد جيرانهم لأسباب دنيوية محضة بكل ضراوة وبكل وحشية حتى سلط الله عليهم البابليين بقيادة نبوخذ نصر تارة والرومان بقيادة طيطس تارة أخرى . وفي عهد المسيح –عليه السلام– كان يحكم فلسطين حاكم روماني هو بيلاطس كما هو معروف للكافة.

ولم تظهر الحرب لأسباب عادلة مشروعة إلا بعد ظهور الإسلام بمولد سيدنا محمد ﷺ عام 571 بعد الميلاد وكانت بعثته برسالة الإسلام في عام 611م، ولم يأذن الله له ولا للمسلمين بالقتال دفاعا عن وجود دولة الإسلام الوليدة ودفاعا عن دين الله إلا بعد الهجرة أو بعد ثلاثة عشر عاما من البعثة المحمدية ، وكانت معركة بدر الكبرى التي انتصر فيها المسلمون على الكفار المشركين في العام الثاني للهجرة أي في عام 624م . وكان من الضروري نشر الإسلام في كل شبه الجزيرة العربية وما حولها فيما يعرف الآن بالعالم الإسلامي نزولا على مقتضيات الوحدة الاستراتيجية لأرض العالم العربي الذي أصبح عالما يسوده الدين الإسلامي ، الذي أصبح هو الدين الغالب على شعوب أقطار العالم العربي من الخليج العربى ، إلى المحيط الأطلسي.

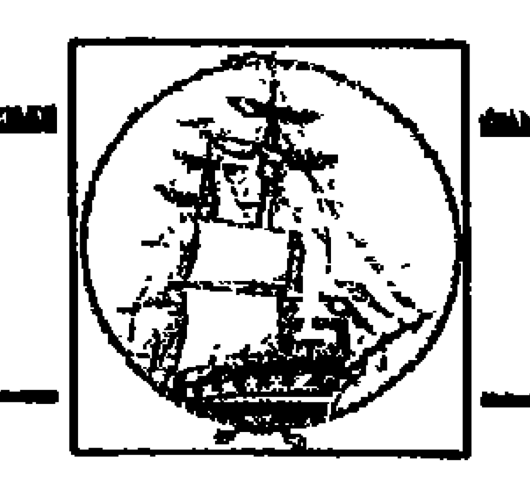

الفتح الإسلامى
حتى نهاية القرن الأول الهجرى
أوروبـــا
آســـيا
بحر الروم (البحر المتوسط)
الصحـــراء الكـــبرى
شبه الجزيرة العربية
بحر العـــرب
بحر بنطس
(البحر الأسود)
الإمبراطورية البيزنطية

وكانت حروب العرب والمسلمين يغلب عليها الطابع الـــبري حتـــى فتـــح المسلمون الشام وفلسطين ومصر ، ووجد معاوية بن أبـــي ســـفيان أن الـــروم يهاجمون فلسطين وبلاد الشام عن طريق البحر مستخدمين فـــي ذلـــك الســـفن ويحاولون النزول إلى سواحل فلسطين والشام.

ولقـــد رفض عمر بن الخطاب أن يأذن لمعاوية بن أبي سفيان في بناء سفن والنزول إلى البحر للقضاء على مصدر إغارة الروم على غرب ولايته. ولمـــا تولى عثمان بن عفان الخلافة أذن لمعاوية ببناء أسطول ومطاردة الـــروم فـــي البحر المتوسط لو هاجموا فلسطين أو الشام بشرط ألا يجبر أحدا من المســـلمين على ركوب البحر ؛ لأن الاعتقاد السائد آنذاك هو أن البحر من أسباب هـــلاك الناس.

واجتهـــد معاوية في خلافة عثمان بن عفان في بناء أسطول كـــان معظـــم بحارته من مسلمي اليمن بقيادة عبد الله بن قيس الحارثي فكان أول أمراء البحر المسلمين . وقـــد فتح معاوية بهذا الأسطول جزيرة قبرص وجزيرة رودس فـــي البحر المتوسط وأخضع أرمينية الصغرى لنفـــوذ المســـلمين ووصلـــت فتـــوح المسلمين البحرية إلى كيلكيا.

وحاول الروم أيضا غزو مصر عن طريق البحر المتوسط في عهد الملـــك قسطنطين ملك الروم فتصـــدى له والي مصر عبد الله بن أبي سرح بأســـطول مصري قـــوي وهـــزم أسطـــول الـــروم في معركة ذات الصـــواري في سـنة **34هـــ (655 م)**. وتمكن عبد الله بن أبي سرح من غزو بلاد النوبة حتى وصل إلى دنقلة بواسطة السفن الحربية التي اتخذت النيل طريقا لها نحو السودان فـــي عام 31 هـــ **(652 م)**.



من الأقوى : البحـر أم البـر ؟

ترى ما الذي جعل كليوباترا وأنطونيو ينتحران بعد أن خسرا معركة أكتيوم البحرية سنة **31** ق .م ؟ لقــد خسرا معركة في البحر المتوسط ، والسؤال هو : لماذا لم يقوما بتنظيم الدفاع البري عن مصر لصــد الرومان عــن دخولــها أو استدراجهم داخل الأراضي المصرية ثم القضاء عليهم ؟

وإجابة هذا السؤال لا تحتاج إلى إعمال الفكر إعمالا طويلا. الإجابة البديهية لهذا السؤال هى أن أنطونيو وكليوباترا لم تكن لديهما قوات برية تكفي لصـــد الجيش الروماني الذي كان سيتدفق عليهما برا من الشام وفلسطين وبحرا عــن طريق بحارة أسطول أوكتافيوس.

هكــذا إذن يتأرجح بندول التفوق والنصر بين استراتيجية تعتمد على الــبر والقوات البرية واستراتيجية تعتمد على البحر والقوات البحرية.

وعنــدما تتصارع دولتان بحرا وبرا فمن الجائز أن تنتصر إحداهما وتنهزم الأخرى في معركة بحرية . وإذا كان لدى الدولة المنهزمة بحريا أو الدولة التي لا تملك قوات بحرية على الإطلاق قوات برية تكفي لدحر المهاجمين عن طريق البحر فإن هذه الدولة تستطيع التغلب على الغزو البحري.

العبــرة إذن هى الاستيلاء على أرض الدولة المحاربة والقضاء على قواتها المسلحة ، والقضاء على كل أسباب قدرتها على مقاومة الغزو سواء كان هــذا الغزو قادما عن طريق البر أو عن طريق البحر . وما دامــت الدولــة التــي تتعرض للغزو ولا تملك أسطولا بحريا يمكنها من دحــر وتدمــير الأســطول الغازي أو إجباره على الفرار والابتعاد عن سواحلها ، ومادامت لا تملك قــوات برية تستطيع أن تهزم القوات الغازية فإن هذه الدولة ستقع حتما تحت احتــلال وسيطرة الدولة الغازية.

ولمـــا كان البشر يعيشون فوق اليابسة ويقيمون عليها منازلـــــهم وقراهــم ومدنهم الصغيرة أو الكبيرة ، فإننا نجـد أن البحر إنما هو طريق للاقـــتراب ، مجرد طريق للاقتراب من الدولة المستهدفة للغزو. وتحتل الأساطيل البحريـــة أقطارا ذات حدود على اليابسة ولا تحتل مساحات من مياه البحر بطبيعة الحال. والمناطق البرية على اليابسة من الكرة الأرضية هى المستهدفة دائما من الغزو، ولكن أهمية البحر ترجع إلى أنه الطريق إلـــى الغــزو خصوصـــا أن البحـــار والمحيطات تحيط بكل قارات العالم ، ومن يمتلك قوات بحرية مسيطرة غالبـــة يمتلك غالبا الطريق إلى غزو القطر الذي يرغب في غـــزوه.



جزيرة الروضة حيث توجد دار صناعة السفن البحرية

ولقـــد كانت الولايات الإسلامية في القرون الأولى تمتلك قوات برية شـديدة البأس ، وعلى الرغم من عـــدم امتلاك العرب في عهد الخليفة الثاني عمر بـــن الخطاب مثلا لأي قوات بحرية إلا أن الروم الذين انتزع منهم العرب بلادا فـــي غاية الأهمية مثل الشام وفلسطين ومصـــر ، وهى ولايات مطلة علـــى البحـــر المتوسط فإننا نجد أن الروم مع أن لهم تاريخا حافلا بالنســـبة إلـــى الحـــروب البحرية لم يقدموا على محاولة استرداد الشام أو فلسطين أو مصر مـــن أيـــدى

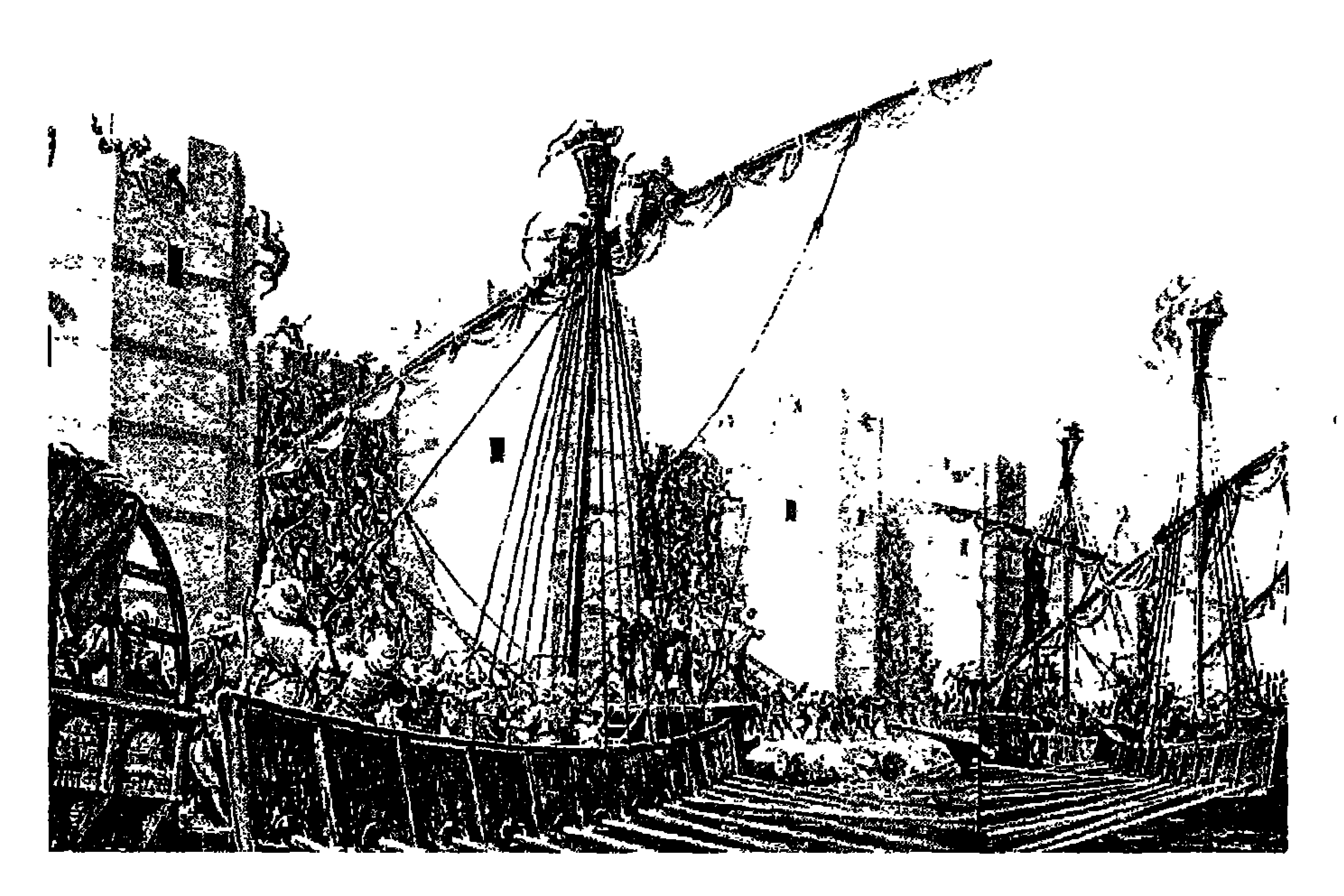
المسلمين بالقوة بالاعتماد على أسطولهم البحرى الذي كان له تـــاريخ بحـــري عريق . والسبب في ذلك هو أن قوات جيوش المســـلمين البريـــة فـــي الشـــام وفلسطين ومصر كانت قوية تستطيع التغلب على أي قوات يأتي بها أي أسطول للروم إلى الشام أو فلسطين أو مصر ، وجميع المحاولات التي بذلها الروم فـــي هذا الصدد باءت كلها بالفشل التام كما يشهد بذلك التاريخ دون أي جدال .

وعندما تعرض العالم الإسلامي للانحلال والضعف والانقسام في العصـــر العباسي الثاني، ولم يعـــد يحكمه خليفة واحد من مركز خلافة واحـــد ، ويتـــم تمويله من بيت إسلامي واحد ، اجترأ الصليبيون بدءا من عام **1095**م حتى عام **1300**م على مهاجمة الأقطار الإسلامية فيما يعرف بالحروب الصليبية، وكـــان الغزو الصليبي للأقطار الإسلامية يأتي إليها في الغالب الأعم عن طريق البحـــر المتوسط ، ولكن توازن القوى بين الدول الصليبية والدولة الإسلامية لـــم يكـــن يعتريه أي خلل لصالح أي من الطرفين.

كـــان الصليبيون يأتون عن طريق البحر في سفن ، هى سفن نقل للجيوش، وهى أبعـــد ما تكون عن السفن الحربية بالمعنى المألوف لدينـــا فـــي العصـــر الحديث . وكان الصليبيون يحاربون المسلمين مستخدمين نفس نوعية الأســـلحة التي كان يستخدمها المسلمون : الخيول والسيوف والرماح والسهام في الغـــالب الأعـــم . وكانت الحروب الصليبية سجالا بين المسلمين والصليبيـــن إلـــى أن انهزم الصليبيون في النهاية وتوقفوا عن الاستمرار في حروبهم الصليبية بعـــد معركة "حطين" وبعد انتصارات سجلها عليهم الظاهر بيبرس والسلطان قـــلاوون وابنه السلطان الناصر قلاوون الذي حاصر الصليبيين في عكا سنة **689** هـــــ (**1290**م) ، وأكمل الحصار وفتح عكا ابنه الأشرف خليل بن المنصور قلاوون ، وطارد الصليبيين حتى ارتدوا إلى حدود الدولة الرومانية الشرقية ، كمـــا كـــان شأنهم قبل بـــدء الحروب الصليبية.

ولمـــا سيطرت الدولة العثمانية على الأقطار الإسلامية في الشام وفلســـطين ومصر والحجاز والعراق ودول شمال إفريقيا أخذت الدولة العثمانية على عاتقها مسئولية الدفاع عن ولايات العالم الإسلامي ضد غزو الدول الأوربية . ووفـــرت

الدولة العثمانية في سنوات قوتها وازدهارها الحماية الفعلية لكل الولايات العثمانية في العالم الإسلامي ، وكان السلطان العثماني يعتبر خليفة المسلمين وحامي الديار الإسلامية في تركيا والبلاد الإسلامية كافة.



ولكن الإمبراطورية العثمانية كانت إمبراطورية تعتمد أساسا على القوات البرية وليس على القوات البحرية . ولم يفتح السلطان سليم الأول مصر بواسطة أسطول بحري يحمل قواته عبر البحر المتوسط ولكنه فتح مصر بواسطة جيش بري عن طريق الشام وفلسطين ودخل مصر. ولم تتوغل الجيوش التركية في جنوب شرق أوربا حتى وصلت إلى فيينا عاصمة النمسا وإلى اليونان والبوسنة والهرسك وألبانيا على البحر الأدرياتيكي عن طريق البحر المتوسط بل بواسطة جيوش برية . وعندما بقيت الدولة العثمانية قوية لم تستطع الدول الأوربية النيل من أي ولاية عثمانية عن طريق البحر أو عن طريق البر . وعندما ضعفت الدولة العثمانية هاجمتها الدول الأوربية برا وبحرا.

لكن الظاهرة الفريدة العجيبة التي تبرز تفوق وتغلب استراتيجية البحر على استراتيجية البر إنما تتمثل في تاريخ البحرية الإنجليزية في العصر الحديث.

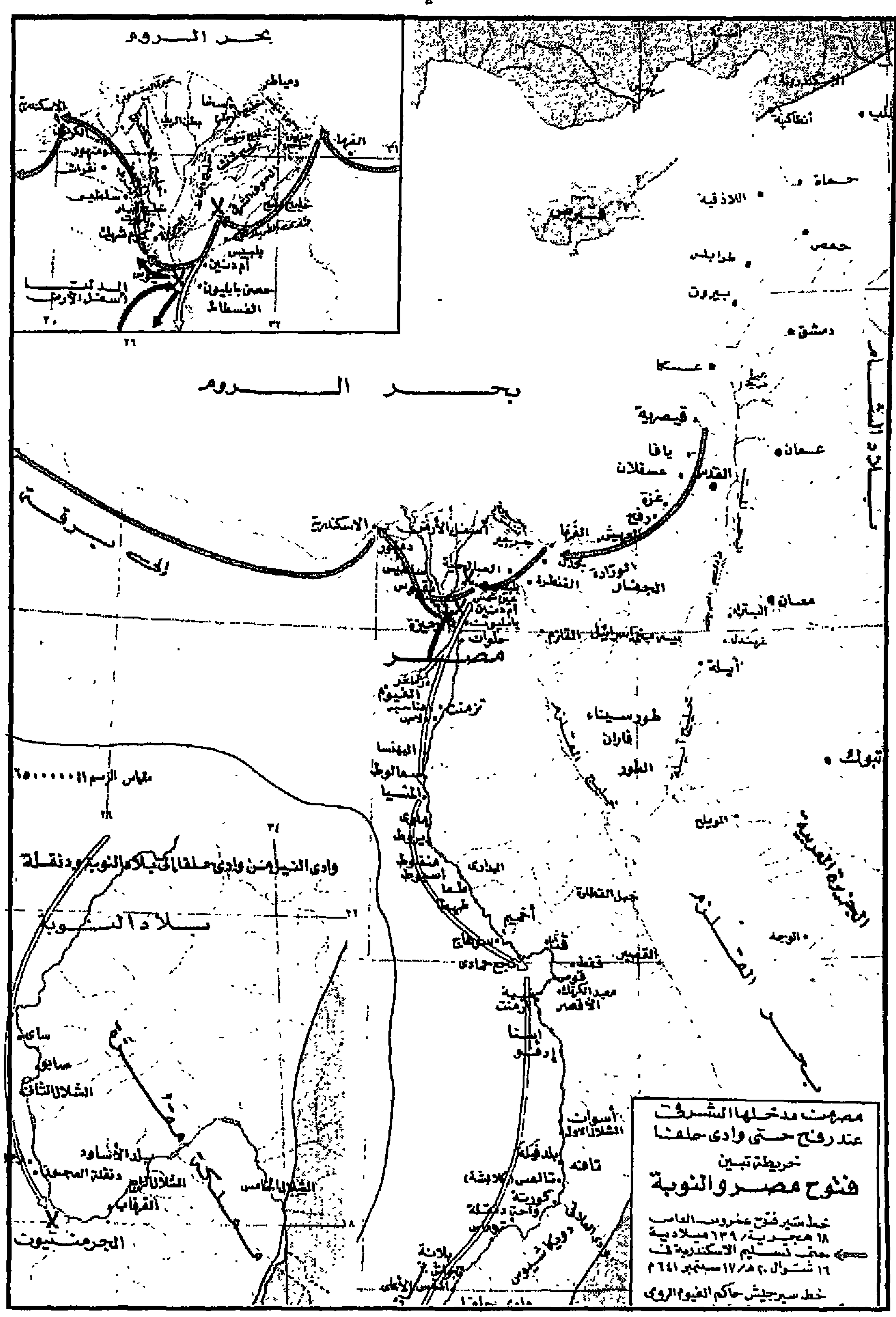
لقد تمكنت القوة البحرية البريطانية من التصدى لأسطول الآرمادا الإسبانى والتغلب عليه وتدمير كثير من سفنه واضطراره إلى الفرار شمالا والعودة ببقايا سفنه المعطوبة إلى إسبانيا، وفشلت بذلك إسبانيا في أن تغزو أرض الجزر البريطانية أولا ، وفشلت ثانيا في القضاء على سيادة الأسطول البريطاني في القنال الإنجليزي وبحر الشمال والمحيط الأطلسي والبحر المتوسط وفي المحيط الهندي وجنوبي المحيط الهادي . وتمكنت بريطانيا من السيطرة على التجارة العالمية في معظم موانى العالم واستطاعت المحافظة على ثرائها ومصادر ثروة تجارها وبدأت في السيطرة على مستعمرات ما وراء البحار دون منازع من الدول الأوربية.

وفشلت هولندا كما فشلت إسبانيا في القضاء على الأسطول البريطاني ، والقضاء على سيطرة بريطانيا البحرية ، كما فشل التحالف بين الأسطول الإسباني والأسطول الهولندي في تحقيق هذا الهدف.

ولم يستطع نابليون أن يفكر مجرد تفكير ولا أن يشرع مجرد شروع فى غزو بريطانيا على رأس جيش فرنسي خوفا من بطش الأسطول البريطاني وقضائه على الحملة وهى ما تزال في عرض البحر ، واقترح على حكومة الإدارة الفرنسية إضعاف بريطانيا بقطع طريق مواصلاتها البحرية إلى الهند وجنوب شرق أسيا وبلاد الصين باحتلال مصر وشمال إفريقيا.

وفي عام **1798** شرع نابليون بونابرت في غزو مصر بحملة فرنسية بالغة الضخامة يحملها أسطول فرنسي قوي ، إنه أسطول فرنسي يقوى على نقل حملة فرنسية كبيرة إلى الأراضي المصرية ، ولكنه لا يستطيع هزيمة الأسطول البريطاني الذي دمر الأسطول الفرنسي في موقعة أبي قير البحرية وفرض

حصارا بحريا على قوات الحملة الفرنسية داخل مصر مما اضطر نابليون بونابرت إلى العودة ، وسعت القوات الفرنسية داخل مصر إلى طلب الصلح مع تركيا للعودة إلى فرنسا بشروط تحفظ للفرنسيين كرامتهم وهو ما تحقق بالفعل أثناء قيادة "مينو" لقوات الحملة الفرنسية في مصر.



وفـــي الحرب العالمية الأولى كما في الحرب العالمية الثانية كانت البحريـــة البريطانية هى الدرع الذي يحمي بريطانيا من الهزيمة.

ويلاحـــظ أن افتقار الدولة العثمانية إلى قوة بحرية تضارع قواتها البرية قد أفضى في النهاية إلى ضعف واضمحلال الإمبراطورية العثمانية ، وأفضى إلـــى وقوع الولايات العثمانية في براثن الإنجليز والفرنسيين الذين غزوا هذه الولايات عن طريق البحر في الغالب الأعم كما حدث أثناء الاحتلال البريطاني لمصر أو الاحتلال الفرنسي للجزائر.

ولمـــا حاولت الدولة العثمانية بناء أسطول بحري قوي عمـــــــدت الـــدول الأوربية إلى التحالف للقضاء على هذا الأسطول في معركـــــة "ليبـــانتو" ســـنة **1571**م.

ولمـــا حاولت الدولة العثمانية تجميع أسطول محمـــد على بالإضافة إلـــــى أسطولها لنقل الإمدادات إلى الجيش التركي والمصري أثناء حـــــرب المـــورة ، تعمـــدت الدول الأوربية وعلى رأسها بريطانيـــا تدمـــير الأســـطول الـــتركي المصري المشترك في معركة نفارين سنة **1827**م.

ولقـــد أفضى انتصار اليابان على الأسطول الروسي في معركة تسوشـــــيما سنة **1905**م إلى أن ابتلعت روسيا أطماعها في ميناء بورت آرثـــر مـــع شـــدة حاجتها إلى ميناء يطل على المحيط الهادي لا تتجمـــد فيه الميـــاه شـــتاء كمـــا ابتلعت روسيا كافة أطماعها في الصين وكوريا ومنشوريا وجنوب شرق آســيا ، بل كانت هزيمة الأسطول الروسي أمام الأسطول الياباني في معركة تسوشـــيما سنة **1905**م هى السبب الرئيسي في اهتزاز هيبة الحكومة القيصرية في روســيا فبدأت سيطرتها تضعف داخل روسيا ذاتها مما فتح الطريـــــق لنجـــاح الثـــورة البلشفية الشيوعية سنة **1917**م في روسيا.

للبحـــر إذن تأثير كبير في الحروب على مدار التـــاريخ ، ولكـــن البحـــر كالصحراء يعتبر طريقا للغزو وليس هدفا للغزو ، ولا تسعى دولـــــة مـــا إلـــى

احتلال أراض صحراوية خالية من البشر والمــدن والقرى والمصانع والمتاجر والمواد الخام ذات القيمة ، وإنما تعبر الجيوش هــذه الأراضــي الصحراويــة لضرورات الدفاع أو الهجوم ، وكذلك مياه البحر ليست هدفا للأعمال العســكرية بحد ذاتها بل هى طرق سهلة للتقدم نحو المناطق المستهدفة من الغزو. والقــوة العسكرية لأي دولة إنما هى صمام أمانها في البر كما في البحر دون أي شك.

لم تقتصر المعارك بين بني آدم على البر والبحر فقط بل غدت المعارك في الجو من أكثر المعارك عنفا وحسما في الحرب.

موقعة أكتيوم (31 ق . م)

الحديث عن موقعة أكتيوم البحرية يعود بالذاكرة إلى الإسكندر الأكبر ، وماذا تم بعد موته ..

حين توفى الإسكندر الأكبر فجأة بالملاريا عام 323 ق.م ، كان الفراغ الذى تركه أكبر من أن يملأه واحد من قواده .. كذلك كانت الإمبراطورية التى فتحها وأسسها بشكل سريع أوسع من أن يحكمها شخص واحد !!

كما أن مشاريعه كانت أكبر من طموح أى قائد من قواده ، لهذا كان لابد من حدوث تنازع بين القواد على حكم الإمبراطورية ..

ابنه الطفل ، الذى ولد بعد وفاته ، لم يكن له من قيمة أمام أطماع خلفائه الذين استمرت حروبهم نحو أربعين سنة ، ظهر خلالها جيل جديد من القواد ، وكان بعضهم من أبناء قادة الإسكندر .. كما ظهرت التمردات الإقليمية .. ومات حلم القواد الأوائل فى الإبقاء على وحدة الإمبراطورية الأولى التى انقسمت فى نهاية الفوضى والقتال ثلاثة أقسام : المملكة المقدونية .. والمملكة السلوقية .. والمملكة البطلمية.

كانت مصر من نصيب البطالمة ، تحت قيادة القائد بطليموس ، أحد حرس الإسكندر الخاص السبعة .. كان من الذكاء العملى بحيث اكتفى فى التسوية التى أعقبت وفاة الإسكندر بأن يظفر لنفسه بولاية مصر ، وبأن ينقل رفات الإسكندر إليها ..

توالى على عرش البطالمة مجموعة من الملوك تسمى كل منهم باسم "بطليموس" من الأول وحتى الخامس عشر .. غير أنهم كانوا أحيانا يحكمون بالاشتراك مع زوجاتهم أو إخوانهم أو أبنائهم .. من هؤلاء المشتركين سبع من الملكات تحمل كل منهن اسم "كليوباترا".

امتدت إمبراطورية البطالمة إلى برقة ، وقبرص ، وجنوب سوريا ، وجزء من ساحلها .. كما كان من ممتلكاتها أيضا بعض المدن الإغريقية ، وبعض سواحل أسيا الصغرى ، وبعض جزر بحر إيجه ، بالإضافة إلى أراضى مصر حتى النوبة وكانت الإسكندرية هى العاصمة.

أمـــا اســم "كليوباترا" فقــد ظل مشهوراً فترات طويلـــة مـــن التـــاريخ .. وتسمى بهذا الاسم– كما ذكرنا– سبـــع ملكات.. أشهرهن على الإطــلاق هـــى الأخيرة ، السابعة ، ابنة بطليموس الحادى عشر .. ولدت عام 69 ق.م ، وتولت الحكم فى عام 51 ق .م مع أخيها وزوجها فى نفس الوقت بطليمـــوس الثـــانى عشر ، وهو أصغر منها ، وما لبث حرسها أن أقصاه .. كان زواج الأقــــارب مقبولاً لدى البطالمة .. كانت كليوباترا ذات ثقافـــــة واســـعة ، وإرادة قويـــة ، وطموح .. حاولت معه حكم الإمبراطورية الرومانية نفسها من خلال يوليـــوس قيصر ثم أنطونيو اللذين أوقعتهما فى شباكها .. ويذكـــر التاريخ أنـــــها كـــانت الوحيدة ، بعد الإسكنـــدر المقدونى، التى كانت تحلم بوحدة الجنس البشـــــرى ، ولكن تحت حكمها .. ويذكـــر التاريخ أيضاً أن روما لم تخـــن فى تاريخـــها إلا عـــدداً محدوداً من الأعداء ، منهم: هانيبال ، وزنوبيا ، وكليوباترا .. حـــاولت هذه الملكة الحفاظ على استقلال مصر، وضمان العرش لأبنائها بكل وســـيلة .. استغلت افتتان يوليوس قيصر ثم انطونيوس بها .. لكـــن قوة روما وأطماعـــها كانت أقوى منها بعد أن سقط البحر الأبيض المتوسط كله بيدها .. فانهزمت فـــى معركة أكتيوم سنة 31 ق .م .. وانتحرت بينما كانت مصر تتحول إلى ولايـــة رومانية .. فكيف كان ذلك ؟

ظل العالم الرومانى ردحاً مـــن الزمـــن مقسـماً بيـــن : أوكتـــافيوس ، وأنطونيوس ، وشخص ثالث هو ليبيدوس .. فـــاختص أوكتـــافيوس بـــالغرب الأصلب عوداً ، ثم ثبت فيه سلطانه ، وكان لأنطونيوس ، ومعــــه كليوبـــاترا ، والشرق الأكثر بذخاً وجمالاً .. وكان نصيب ليبيدوس تلك العظمة النخرة التـــى أصبحت حطاماً بالية ، وهى إفريقيا القرطاجية.

تألـــق نجـــم أوكتافيوس ، وريث يوليوس قيصر ، .. وممـــا يجدر ذكـــره هنا ارتباط مصير الشخصيات الكبرى بمصير كليوباترا .. فقد جعلـــت شـــغلها الشاغل بعد مقتل قيصر أن تتسلط على مشاعر أنطونيوس وغروره ، وهو رجل أحدث سنا من قيصر بكثير .. استسلم أنطونيوس فى ظلال كليوبـــاترا للـــهوى ولحلم من المجـــد الحســـى .. مما أثار طمـــع أوكتافيوس ورغبته فى القضـــاء على أنطونيوس وكليوباترا ..

عمـــل أوكتافيوس على خلع أنطونيوس من إمـــرة الشرق ثم مضى يهاجمه، ودارت بينهما رحى معركة أكتيوم الشهيرة (31 ق.م) .. التقـــــى فـــى هـــذه

المعركة أسطول أوكتافيوس فى مواجهة أسطول أنطونيوس ، وقد انضـم إليـه بطالمة مصر بقيادة كليوباترا ..

كـان العامل الفاصل فى هذه المعركة هو تخلى كليوبـاترا عـن حليفـها أنطونيوس وفرارها فى ستين سفينة حين حمـى الوطيس ..

يقـول بعض المؤرخين : ومن المحال تمامًا أن نفصل أسباب هذا التخلـى ، هل كان عن خيانة مدبرة من قبل ؟ أو هو نتيجة نـزوة فجائية أطاحت بـرأس امرأة فتانة ؟!

أدى رحيل كليوباترا بهـذا العدد الهائل من السفن إلى وقـوع أنطونيـوس ورجاله فى حرج بالغ وارتباك شديد ، قطعـت عليـه كـل أسـباب الرجـاء والنجـاة.. وتفاقم الخطب على الجنود عندما قرر هذا العاشق الولهان الـهرب فى إثـر كليوباترا .. إذ انطلق خلفها فى سفينة سريعة دون أن يخبر قـواده .. وبذلك ترك جنوده وقواده يقاتلون ويموتون حسبما تراءى لهم .. لقـد ظلوا فترة طويلة يبحثون عنه لا يصدقون أن قائدهم قـد ولّـى !!

أطبقت شباك أوكتافيوس على مهل حول منافسه ، وليس مستبعداً أنه كـان هناك نوع من التفاهم بين كليوباترا وأوكتافيوس !!

ومـرة أخرى يحاصر أوكتافيوس كليوباترا وأنطونيوس فى الإسكنـدرية ..

وألقـى بعضهم فى روع أنطونيوس أن كليوباترا قد انتحـرت .. فطعـن نفسه طعنة غير قاتلة .. جعلته يقضى نحبه على مهل ، ثم حمل إليـها ليلفـظ أنفاسه الأخيرة بين يديها (30 ق.م) ..

أما كليوباترا ، فقد ذكر بعض المؤرخين أنها ماتت بعد أن لدغتها أفعـى سامة دون أن يشعر بها أحـد من الحراس !!

وهكـذا انتهت حياة كل من كليوباترا وأنطونيوس ، بعد هزيمتهما فى موقعة أكتيوم ، وتبع ذلك استيلاء الجيوش الرومانية على مصر والشـام .. وتحـول البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرة رومانية يمرح فيها الأسطول الرومانـى ..

العرب ومعاركهم البحرية

على الرغم من نجاح العرب والمسلمين فى فتوحاتهم البرية ، إلا أن البحـــر كان يشكل أمامهم عقبة كبيرة .. كان لا بـــد من التغلب عليـــها حفاظـــا علــى دولتهم واستمراراً لتوسعاتهم ونشر رسالتهم ..

لــم يكن عليهم من السهولة فتح قيسارية ، نظراً لأنها كانت تتلقى الإمـدادات من البحر .. وكذا الحال بالنسبة لطرابلس ، إذ استلزم فتحها حصاراً من البحــر والبر فى نفس الوقت ، وكانت طرابلس تتلقى الإمدادات البيزنطية عن طريـــق البحر ..

لقــد رأى العرب المسلمون ضرورة بناء أسطول بحرى قوى يحافظ علـــى دولتهم من كيد الأعـــداء الذين يحيطون بهم من كل مكان .. وتبنى هذه الفكـــرة معاوية بن أبى سفيان وكان وقتها واليا على الشام من قبل الخليفـــة عمـــر بـــن الخطاب رضى الله عنه ..

كـــان معاوية رجلاً سياسياً من الطراز الأول ، بعيـــد النظرة ، ثاقب الفكرة، يعى الأحداث جيداً ، يقرأ التاريخ ويستخلص العبر والنتائج .. لقد رأى تجربـــة الفرس مع البيزطيين .. إذ استطاع الفرس الاستيلاء على الشام ومصـــر عـــام 614م، أى قبل الفتح العربى لهذين البلدين بنحو عشرين سنة .. وبذلـــك حقـــق الفرس أعظم أمانيهم ووصلوا بحدود دولتهم إلى البحر الأبيض المتوســـط .. إلا أنه فاتهم أن يؤسسوا أسطولاً بحريا قادراً على حماية هذه الدولة .. وهـــذا مـــا فطن إليه هرقل بعد أن اعتلى عرش الدولة البيزنطية ، فأعد حملة بحرية تمكـــن بها من استرداد مصر والشام من الفرس ..

وعـــى معاوية بن أبى سفيان هذا جيداً ، وسعى لتحقيق هدفـــه فـــى إنشـــاء أسطول بحرى لدى الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .. فاســـتأذنه فـــى غزو قبرص ، وكتب إليه قائلا : يا أمير المؤمنين ، إن الشام قرية يسمع أهلـــها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم ، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص !!

علم معاوية حجم الخطر الذى يمثله تواجد الروم فى قبرص القريبة من حدود الدولة الإسلامية .. وبالطبع فإن غزو قبرص يحتاج إلى أسطول بحرى، وهذا ما كان يهدف إليه معاوية فى حالة إذن الخليفة وموافقته على غزو قبرص ..

إلا أن عمر لم يوافق على غزو قبرص وركوب البحر .. كان يعلم أن العرب لقلة خبراتهم البحرية لا يمكنهم مواجهة الروم فى ذلك الوقت .. وأن فى ركوب البحر هلاكا للمسلمين .. وقال قولته المشهورة : تالله لمسلم أحب إلىَّ مما حوت الروم !!

وبعد وفاة عمر رضى الله عنه تمكن معاوية من إقناع الخليفة الثالث عثمان بن عفان بضرورة غزو البحر وتأمين حدود الدولة الإسلامية .. وقد تم له ما أراد .وأصبح امتلاك العرب والمسلمين لأسطول بحرى لم يكن لهم عهد بمثله من قبل ، من أكبر صفحات الاستجابة للتحدى الذى فرضته أوربا ..

وقد كان للتعاون الذى تم بين معاوية بن أبى سفيان والى الشام وعبد الله بن أبى سرح والى مصر خلفا لعمرو بن العاص ، أقوى الأثر فى إرهاب البيزنطيين ، والتفكير جدياً فى غزو البحر .. وكانت قبرص أول ما فكر معاوية فى غزوه .. كانت قبرص بحكم موقعها الجغرافى ، أشبه بمسدس مصوبة فوهته تجاه الشام .. وإلى جانب ذلك كانت الجزيرة تتحكم فى مياه القسم الشرقى من البحر الأبيض المتوسط .. إذ كان يمكن للمرء أن يرى بالعين المجردة أسيا الصغرى والشام .. ولعل هذا ما عناه معاوية حين قال مستثيراً الخليفة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه : إن الشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم ، وصياح ديوكهم !!

وفوق هذا وذاك فقد كانت قبرص محطة التموين البحرى للأسطول البيزنطى ، وهى الملاذ الذى يلجأ إليه الروم وقت الانسحاب .. لذلك كان لابد من غزوها لحرمان البيزنطيين منها وبالتالى إضعافهم ! !

استعد معاوية لغزو قبرص ، واصطحب معه عددا كبيرا من الصحابة ، بعد ما اشترط عليه الخليفة عثمان بن عفان ألا يجبر أحداً على ركوب البحر .. واشترط عليه أيضا أن يصطحب معه زوجته .. وهذا ما تم بالفعل .. وكان من بين الصحابة الذين أبحروا معه عبادة بن الصامت والذى اصطحب معه زوجته أم حرام بنت ملحان ..

قامت الحملة بقيادة معاوية من الشام والتقت بحملة السفن المصرية بقيادة عبد الله بن أبى سرح .. وتولى القيادة معاوية .. وصلت السفن العربية إلى قبرص ونزلت الحملة على شواطئها ، وفرضت الحصار على الجزيرة حتى طلب حاكمها الصلح على أن يقفوا موقفا محايداً فى الحرب بين العرب والروم.

لقد كانت هذه الحملة أول مغامرة بحرية من جانب العرب إلا أنها كانت بالغة الأهمية بالنسبة لهم ، فقد كسرت عندهم حاجز الخوف من ركوب البحر ، وبعدها تملكتهم الجرأة فصالوا فى البحار وجالوا ..

وفى العام التالى لهذه الحملة على قبرص قام الأسطول العربى بفتح جزيرة "أرواد" الواقعة بالقرب من ساحل الشام .. وهى أقرب إلى الشام من قبرص ..

إلى قبرص مرة أخرى !!

لم يف أهل قبرص بعهدهم مع معاوية بن أبى سفيان ، بل وقفوا بجانب الروم ضد المسلمين لذا رأى معاوية معاودة غزوها . هذا ما تم بالفعل عام 33هـ 653 م ، بعدها خضعت الجزيرة للسيادة العربية ، وأصبحت قاعدة استراتيجية للأسطول العربى فى البحر الأبيض المتوسط.

فتح رودس :

رودس جزيرة ذات موقع متميز بالقرب من أسيا الصغرى على الحدود ما بين الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية .. لذا فكر معاوية بن أبى سفيان فى فتحها تأمينا للدولة الإسلامية ، فبعد أشهر قليلة من فتح قبرص أرسل معاوية أسطولا بحرياً بقيادة جنادة بن أبى أمية إلى رودس ، الذى تمكن من فتحها . وكان ذلك دعماً للأسطول العربى فى البحر الأبيض المتوسط بقدر ما هو ضربة قاصمة للأسطول البيزنطى ..

شعر البيزنطيون "الروم" بخطورة موقفهم أمام الأسطول العربى ، خاصة بعد فتح العرب لكل من قبرص ورودس .. فأعدوا عدتهم ، وجهزوا أسطولاً ضخما لملاقاة الأسطول العربى ، وكانت موقعة ذات الصوارى.

معركة ذات الصوارى(655م)

لعلها أهم المعارك فى تاريخ البحرية الإسلامية .. بل وأولها أيضا ..

إذ أنها حققت السيادة للمسلمين على البحر الأبيض المتوسط ، وتخليصه من سيادة الروم .. إذ كان اسمه قبل ذلك "بحر الروم" ..

فمتى وكيف كان ذلك ؟

حدثت معركة ذات الصوارى عام 34 هـ/655 م إبان خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه .. فى ذلك الوقت كان البحر الأبيض المتوسط عبارة عن بحيرة رومية (بيزنطية) ،إذ كانت الجيوش البيزنطية تحتل بلاد الشام ، ومصر ، وأجزاء من سواحل بلاد المغرب .. تستنزف خيراتها وتضطهد أهلها.

وكان وجود الروم فى البحر الأبيض المتوسط يهدد الدولة الإسلامية فى شبه الجزيرة العربية ويصعب مهمة الفاتحين المسلمين فى نشر الدعوة ..

ومن هنا رأى معاوية بن أبى سفيان ، وهو الرجل المحنك ، مدى الخطورة التى يمكن أن يسببها الأسطول البيزنطى للدولة الإسلامية.

كان معاوية –الذى كان واليا على الشام آنذاك– على دراية تامة بالتاريخ ، ويعلم تماماً أن الفرس تمكنوا قبل الفتح الإسلامى بأعوام قلائل ، من انتزاع الشام ومصر من الروم وحاصروا عاصمتهم القسطنطينية بجيوشهم البرية عام 626 م .. اعتمد الفرس فى ذلك على قواتهم البرية ولم يكن لهم فى ذلك الوقت قوة بحرية قادرة على مواجهة الأسطول البيزنطى .. ولذا تمكن البيزنطيون باستخدام أسطولهم البحرى القوى فى البحر المتوسط ، من استعادة مستعمراتهم المفقودة ..

علم معاوية بن أبى سفيان ذلك جيداً ، ولذا عمد إلى إقناع خليفة المسلمين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، بضرورة أن يكون للمسلمين أسطول بحرى قوى يؤمن الدولة الإسلامية ويحقق طموحاتها ، ويحميها من غدر الروم.

وتمكــن معاوية بالفعل من إقناع الخليفة عثمان بن عفان بضرورة أن يكون للمسلمين أسطول بحرى ، وبدأ العمل فى إنشائه ، حتى انتهوا منه وصار لـــهم أول أسطول بحرى فى البحر المتوسط ..

بــدأ الأسطول مهامه فى البحر الأبيض المتوسط ، وكان له مـــهام قتاليــة سبقت موقعة ذات الصوارى .. ففــى عـــام 29 هــ تمكن معاوية مـــن فتـــح جزيرة "أرواد" الواقعة بين ساحل الشام وقبرص ، وكانت هذه الخطوة هامة لفتح قبرص ذاتها .. وهذا ما حدث بالفعل عام 32 هـــــ /653 م .. حينمـــا جـــهز معاوية أسطولا عظيما قوامه 500سفينة ، حيث فتحـــت الجزيـــرة وأصبحـــت قاعـــدة بحرية إسلامية .. وفى العام نفسه أرسل معاوية أسطوله بقيادة "جنـــادة ابن أبى أمية" لفتح جزيرة "رودس" .. وكان له ما أراد .. وأصبحـــــت "رودس" هى الأخرى قاعـــدة إسلامية فى البحر الأبيض المتوسط ..

وإزاء ذلك استشعر الروم الخطر وعلموا أن دولتهم أصبحـــت فـــى مـــهب الريح، خاصة بعد أن بدأ الأسطول الإسلامى فى التقــــدم لفتــح الأمصـــار ، وبالفعل انتزعت بعض دول الشام ومصر من الإمبراطور البيزنطى "هرقـــل" .. وفى عام 642 م تولى الإمبراطور "قنسطانز الثانى" العرش وكان يـــأمل فـــى إعادة مجـــد بلاده ، ويعود بها إلى سابق عهدها ، ويقضـــى علـــى الأســـطول الإسلامى ، ويستعيد مصر والشام ..

وفى عام 655 م علم بنشاط بحرى هائل واستعدادات كبرى يعدهـــا والـــى الشام معاوية بن أبى سفيان لفتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية .. عندئذ أسرع "قنسطانز الثانى" بتجهيز أسطوله البحرى الذى ابحر باتجاه الشام لتدمـــير أسطول المسلمين ، وكان التقاء الأسطولين فى عرض البحر هو السبب المباشـــر لمعركة ذات الصوارى ..

ولكن .. ما معنى ذات الصوارى ؟

اشترك فى تلك المعركة نحو ألف سفينة حربية شراعية من الطرفين ويذكـــر بعض المؤرخين أن العدو كان يربو على ألف ومائتى سفينة ..

لـــم يكن العالم فى ذلك الوقت يعرف السفن التى تدار بالبخار ، أو الفحـــم ، أو البترول ، أو الطاقة النووية .. وإنما كانت السفن تعتمد فى حركتـــها علـــى الأشرعـــة التى تحملها الصوارى المثبتـــة فى تلك السفن .. ونظـــــراً لكـــثرة

السفن ، فقــد ظهرت تلك الصوارى وكأنها غابة من الأعمــدة الخشبية .. لـــذا أطلق المؤرخون على تلك المعركة "ذات الصوارى" ..

كيف سارت المعركة ؟

اجتمــع شمل الأسطول الإسلامى بالتقــاء أسطول الشام المرسل من قبـــل معاوية بن أبى سفيان بالأسطول المصرى بقيادة عبد الله بن أبى السرح .. وقــد بلــغ عدد سفنه نحو مائتى سفينة .. التقى هذا الأسطول بالأسطول البــــيزنطى بقيادة قنسطانز الثانى ، وكان أسطولاً ضخماً ، ذكر المؤرخون أنه يزيد علـــى خمسمائة سفينة ويقل عن ألف سفينة .. وكانت السفن مجهزة تجهيزاً جيداً يفوق تجهيز سفن الأسطول الإسلامى ..

لـــم يكن هناك أدنى شك لدى الروم فى هزيمة الأسطول الإسلامى ، خاصة وأن الجيش الإسلامى (العربى) حديث عهــــد بـــالحروب البحريـــة .. بـــدأت المعركة ولم يكن العرب يجيدون سوى الرماية بالأقواس والسهام .. وهــذا مـــا لا يتناسب مع البحر .. إلا أن القائد العربى فكر فى حيلة غاية فى الذكـــــاء ، وهى تحويل الحرب إلى حرب برية .. فكيف كان ذلك ؟

صـــدرت الأوامر إلى الجنود المسلمين بإلقـــاء الخطاطيف على سفن الروم وجذبها إليهم ، حتى إذا ما التصقت سفن العدو بسفنهم تحول البحر إلى ميــــدان برى. وهـــذا ما حدث بالفعل .. وراح الجنود المسلمون فى قتال أعدائهم الـــروم بسيوفهم ورماحهم ، حتى أصيب الأعـــداء بالشلل التام ، وكثر فيـــــهم القتـــل ، وتحول لون المـــاء الصافى إلى لون الـــدم ..

حـــاول الروم أن يعيـــدوا إلى أنفسهم شيئًا من الثقة ، فعمـــدوا إلى الفكـــرة التى ابتدعها المسلمون فى جذب السفن إليهم ، وكادوا أن ينجحوا فـــــى جـــذب سفينة القيادة إليهم ، وعلى متنها القائد "عبدالله بن أبى سرح" إلا أن الله ســبحانه وتعالى أفسد خطتهم ، حيث ألقى جندى يدعى "علقمـــة" بنفسه على السلسلة التى جذبوا بها السفينة ، وأخذ فى قطعها غير مبـــالٍ بسهام الأعـــداء حتى تمكن من قطعها وإنقاذ القائد من الوقوع فى أيدى الأعـــداء ..

ولـــم تمـــر تلك المحاولة الفاشلة من الأعداء على الجنود المســــلمين مـــر الكرام.. إذ كيف يجرؤ عدوهم على محاولة أسر قائدهم ؟!

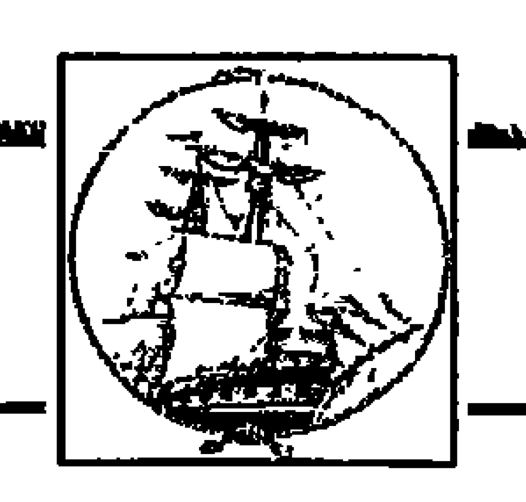
لقــد أصــروا على الانتقام من تلك المحاولة الفاشلة ، فاقتحموا سفينة القيادة وعلى متنها قائدهم "قنسطانز" وقتلوا العديد من جنوده ، وتمكــن "قنسطانز" مــن الهروب متنكراً ، واستقل مركباً آخر واتجه به إلى جزيرة صقلية جنوب إيطاليا .. تاركاً جنوده فريسة فى أيدى المسلمين ..

كــان عــدد جنود الروم حوالى عشرين ألفاً ، سقط معظمهم قتلى ، وأســر بعضهم .. ولم يفلح فى الهروب إلا عــدد قليل !!

وانتهت المعركة بهزيمة ساحقة لأسطول الروم .. وتمكن الأسطول العربــى الإسلامى من السيطرة على البحر الأبيض المتوسط ، وأصبح بحيرة إســـلامية بعد أن كان بحيرة "رومية" مما مكن المسلمين من الاستقرار فى كـــل البلــدان المطلة على البحر الأبيض .. وفى نفس الوقت علمت الــروم قــوة المســلمين البحرية فعمــدوا إلى الاستقرار داخل حدود دولتهم فى أسيا الصغرى مكتفيــن فقط بالدفاع عن أنفسهم إذا ما هوجموا وتخلوا تماماً عن فكرة طرد العرب مــن مصر والشام.

يذكــر الأستاذ / محمد غريب جودة ، أن النتيجـــة غــير المباشــرة لــهذه المعركة هى أنها حلت "عقــدة العرب" من البحر ، وحررتهم من خوفهم القديــم منه ، ومنحتهم الثقة فى قدرتهم الملاحية ، فانطلق العرب والمسلمون يجوبـــون البحر الأبيض المتوسط وقد خلا من العدو البحرى الأكبر .. ومـــن البحريــن الأبيض والأحمر اندفع بعد ذلك الربابنة المسلمون يرتادون البحار الجنوبيـــة ، وانطلقت القوة البحرية العربية من عقالها لتصبح مارداً عظيماً يســيطر علــى بحار العالم من بحر الزقاق "مضيق جبل طارق" غرباً إلى بحر الصين شرقاً ..

وتقدمـــت فنون الملاحة تقدماً عظيماً على أيدى رجــال البحــر العــرب ، واصطبغت تماماً بصبغة عربية بدرجة انتقل معها الكثــير مــن المصطلحــات الملاحيـــة والبحريـــة والعربيـــة إلـــى معـــاجم اللغـــات الأخـــرى.

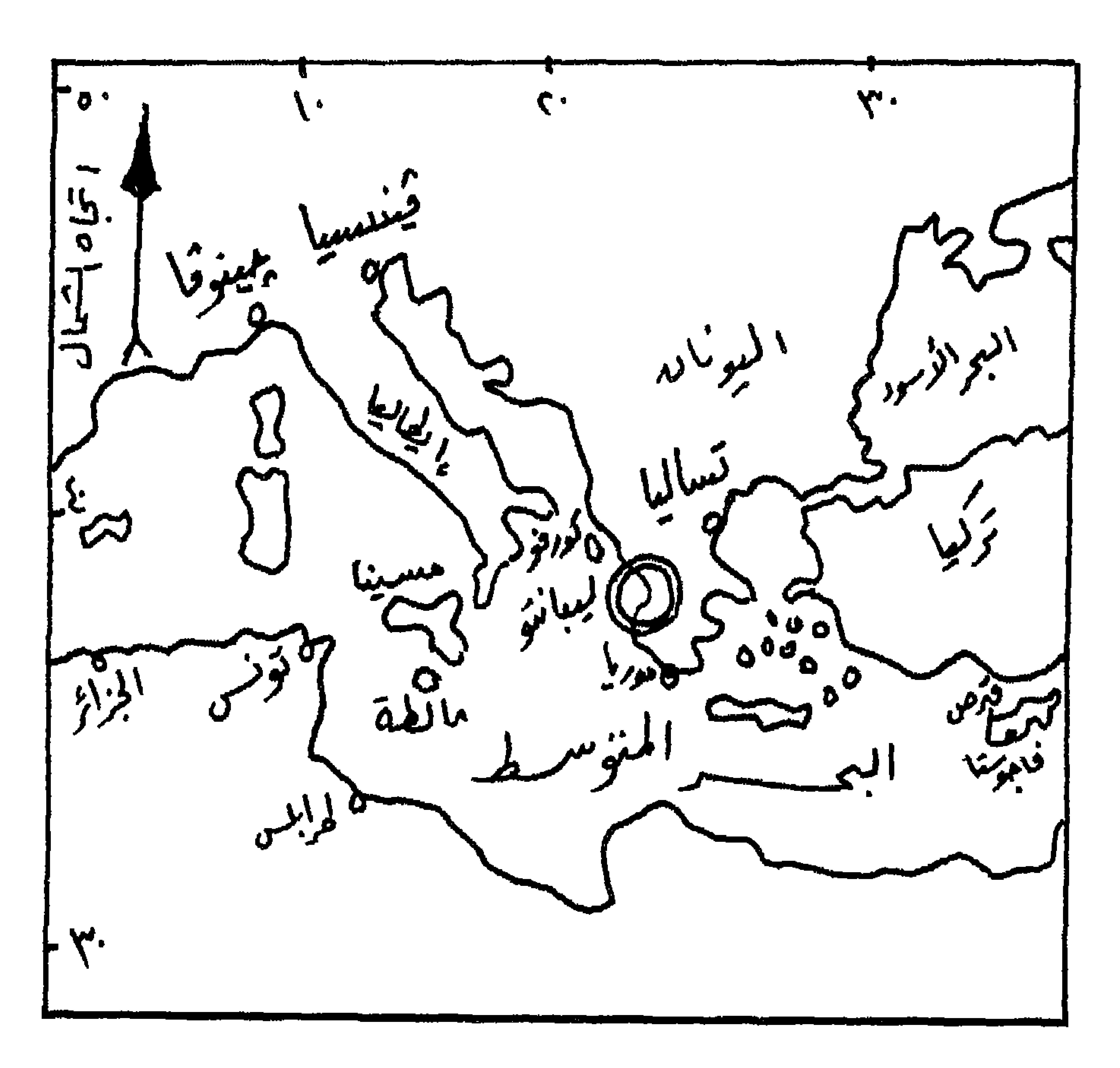


معركة ليبانتو Lepanto (1571م)

جـرت معركة ليبانتو البحرية بين أسطول الأتراك العثمانيين ومجموعـة أساطيل مجموعة من الدول الأوربية هي: النمسا وإسبانيا وفينيسيا وجنوا ومالطة بتوجيه من بابا روما سنة (1571م) . ويعتبرها مؤرخو الغرب من أهم المعارك التي انتصر فيها أسطول للدول المسيحية على أسطول للمسـلمين، بـل إنـهم يعتبرونها نقطة تحوّل في تاريخ الصراع الحربي بين المسيحيين والمسـلمين ، حيث كان النصر حليف الجيوش الإسلامية طوال القرون السابقة في المعـارك البرية حتى اضطرت المسيحية إلى الانسحاب إلى داخل القارة الأوربيـة التـي كان المسلمون الأتراك يهاجمونها من الشرق وكان مسلمو الأندلس يهددونها من إسبانيا أو الأندلس في الغرب.

وبعـد أن كانت الحروب الصليبية فد انحسرت عن أراضي العالم الإسلامي بعد معركة حطـين سنة 1187م ، وبعد استيلاء الظاهر بيبرس على أنطاكيـة سنة 1268م ، وعلى حصن الصليبيين في بلاد الأكراد سنة 1271م ، وكذلـك بعد استيلاء السلطان قلاوون على طرابلس في لبنان سنة 1289م ،ثم اسـتيلاء ابنه السلطان الأشرف على آخر حصون الصليبيين في بلاد الأنـاضول 1374م فانطوت بذلك آخر صفحة من صفحات الحروب الصليبية لكي تفاجأ دول أوربـا الصليبية باجتياح الأتراك العثمانيين لبلادهم داخل أوربا بعد معارك برية ،بـدأت باستيلاء السلطان العثماني محمد الفاتح على القسطنطينية سـنة 1453م لكـي يتمكن الأتراك العثمانيون ، وهم مسلمون لا يتكلمـون اللغـة العربيـة ، مـن التوغل في الأقطار الأوربيـة حتى وصلـوا إلى بودابست وفيينـا في عهـد السلطـان سليمان الأول (1520 – 1566م).

ولكن الأتراك العثمانيين كانوا متفوقين على جيوش الدول الأوربيـــــة فـــي المعارك البرية ، ولم يلتفت الأتراك العثمانيون إلى الاهتمام بمطالب الحـــروب البحرية اهتماما كافيا ، إذ اكتفوا فقط بالاستيلاء على جزيرة صقليـــة وجزيـــرة

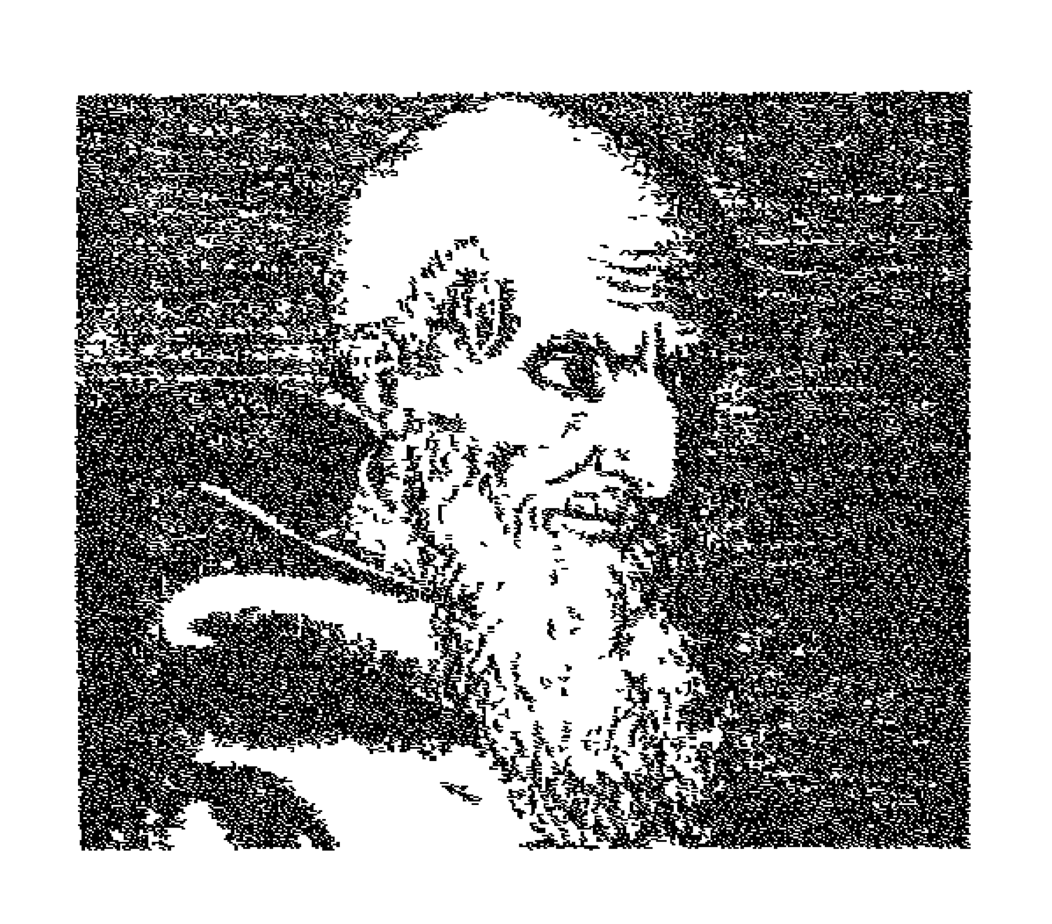


رودس ، ولم يستطيعوا الاحتفاظ بسيطرتهم عليها إذ انتزعها منــــهم الإنجلـــيز عندما ضعفت الإمبراطورية العثمانية.

وكـــان انعـــدام سيطرة الأتراك العثمانيين على البحر المتوسط مـــن أهـــم أسباب انهيار الإمبراطورية العثمانية ، إذ لم يستطيعوا أن يحكمـــوا ســـيطرتهم على البلاد الأوربية المطلة على البحر المتوسط لوصول الإمـــدادات البحريـــة الأوربية إليها باستمرار ، واضطر الأتراك العثمانيون إلى التوغل فـــي وســـط أوربا وأصبحت جيوشهم شبه محاصرة من الشمال والجنوب ، حيث كـانت دول

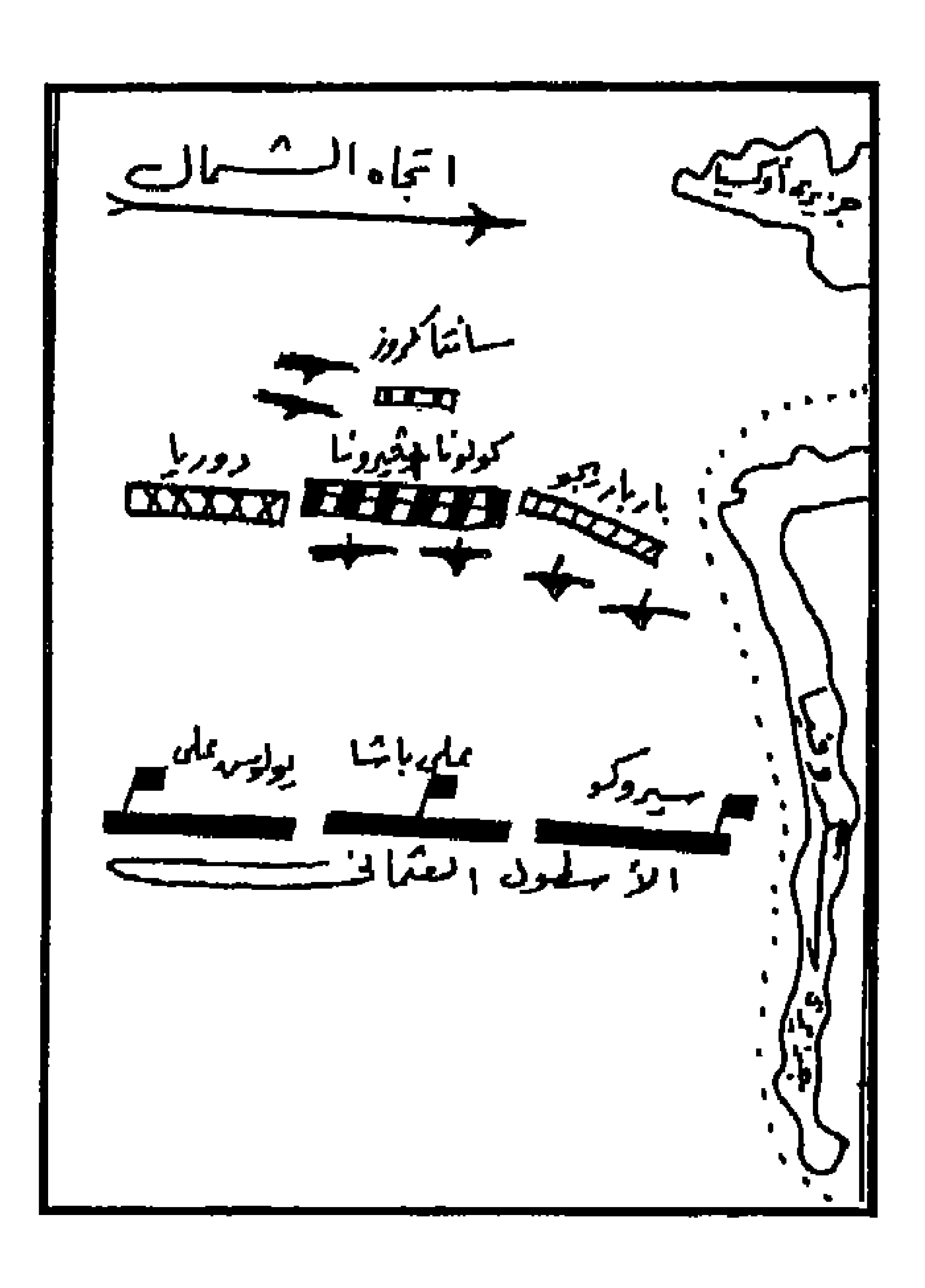
أوربية قوية تتاخم الفتوحات العثمانية من الشمال مثل ألمانيا وإنجلترا وفرنسا وروسيا بينما كانت الدول الأوروبية في جنوب أوربا قد استعصى فتحها على الأتراك العثمانيين مما جعل فتوحاتهم في أوربا في النهاية أشبه بجيب محاصر من الشمال والجنوب ، وفي ذلك تتجلى أهمية البحر في حصار القوات العسكرية الموجودة فوق البر وهو مشهد تكرر كثيرا عبر عصور التاريخ.

وهكذا اقتسمت دول أوربا واجبات مقاومة غزوات الأتراك العثمانيين في أوربا بحيث اضطلعت روسيا وبولندا وألمانيا بالضغط على جيوش تركيا من الشمال والشمال الشرقي في حروب برية ، ودعا البابا بيوس الخامس **Piys (V)** إلى حلف بحري مقدس للقضاء على الأسطول العثماني بحيث لا يهدد دول جنوب أوربا ، وللحيلولة دون أن يصبح البحر المتوسط بحيرة عثمانية . ونجح البابا بيوس الخامس في دفع دول جنوب أوربا إلى تجميع أسطول مشترك للقضاء على أسطول الأتراك العثمانيين كما سبق أن أشرنا.



البابا بيوس الخامس

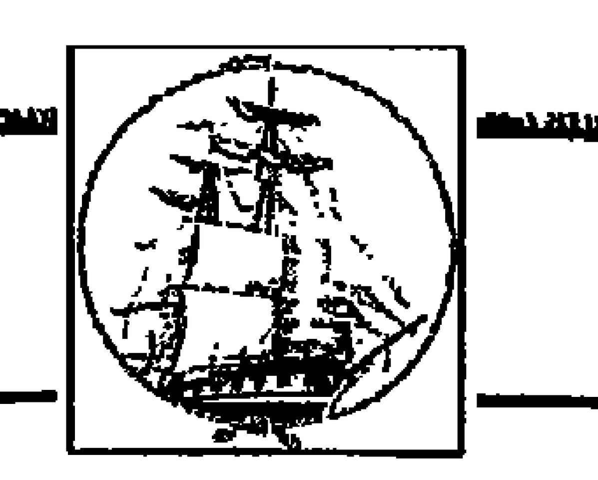
وعلى الرغم من أن الأتراك العثمانيين كانوا قد دفعوا إلى المعركة بأفضل ما لديهم من السفن الحربية بقيادة علي باشا فلقد كان تسليح سفن التحالف الصليبي أفضل من تسليح السفن العثمانية، حيث إنها كانت مسلحة بمدافع أطول مدى ، وكان عدد سفن التحالف الصليبي أكبر من عدد سفن الأتراك العثمانيين ، وكانت السفن التركية قد تقدمت إلى المعركة في تشكيل من خط واحد بينما



احتفظ "دون جون" الدانمركي بتشكيل على أكثر من خـط محتفظـا باحتيـاطي استراتيجي.

ولقـد كان الأتراك العثمانيون قد تقدموا إلى المعركة مساء يوم 6 أكتوبـر سنة 1571م لتبدأ المعركة في فجر يوم 7 أكتوبر سـنة 1571م ، واسـتمرت المعركة لمدة أربع ساعات ، تم فيها تدمير معظم سفن الأسطول العثماني ، ولـم يستطع العثمانيون أن يحشدوا أسطولا بقوة هذا الأسطول الذي تم تدمـيره فـي معركة ليبانتو (**Lepanto**) ولذلك تعتبر هذه المعركة من المعارك الفاصلـة إذ أصبحت للأساطيل الأوربية السيطرة على البحر المتوسط ، وكان ذلك من أهـم أسباب ضعف وانهيار الإمبراطورية العثمانية.





لم يكن الصراع محتدما في القرن السادس عشر الميلادي بين العالم المسيحي الذي تحصن داخل القارة الأوربية والعالم الإسلامي بقيادة الأتراك المسلمين فقط ، بل كان الصراع أشد احتداما بين الدول الأوربية المسيحية داخل أوربا ذاتها وذلك لسببين رئيسيين :

- **أولهما** : هو الخلاف المذهبي الديني بين الكاثوليك والأنجليكانيين والبروتستانت.
- **وثانيهما** : هو الصراع حول السيادة والسيطرة على البحار وصولا إلى المستعمرات للحصول على الثروات.

وإذا كان الملك أو الملكة ، الإمبراطور أو الإمبراطورة يتطلب من شعبه الولاء التام والطاعة الكاملة ، فلقد كان البابا ، رئيس الكنيسة الكاثوليكية في روما .يتطلب الولاء التام والطاعة الكاملة من كل الشعوب المسيحية لكي يكون كل الملوك والأباطرة وكل الدول المسيحية في أوربا خاضعين للسلطة الروحية للمذهب الكاثوليكي وحده ، أما المذهب الأنجليكاني لكنيسة إنجلترا ، أو المذهب البروتستانتي في ألمانيا وهولندا والسويد والنرويج فهى هرطقة وكفر بمبادئ الإيمان المسيحي يستحق معتنقوها ملوكا وأباطرة وشعوبا اللعنة والموت والهلاك والحرمان من الخلاص من الذنوب ، وهو الخلاص الذي لا يتحقق إلا بالولاء للكنيسة الكاثوليكية في روما برئاسة بابا روما.

وكانت إسبانيا وفرنسا هما الدولتان الأوربيتان اللتان كانتا تعتبران معقل المذهب الكاثوليكي ، وكان لبريطانيا مذهبها الإنجليكاني ، وانتشر المذهب البروتستانتي في ألمانيا وهولندا والدانمرك والسويد وبعض الدول الأخرى . وساد المذهب الأرثوذكسي في روسيا ، أي أن كل دولة من الدول الأوربية الكبرى كان لها كنيستها ومذهبها الخاص بها في المسيحية.

وكانـــت إسبانيا على وجه الخصوص تعتبر مـــن أهـــم معـــاقل المذهـــب الكاثوليكي منذ نجاحها بتوجيهات ومساعدات البابا والدول المسيحية الأخرى في طرد المسلمين من كل الأراضي الإسبانية ، وكان البابا يرغب بشدة في استغلال القوة العسكرية الإسبانية في إضعاف والقضاء على القوة العسكرية البريطانيـــة التي تحمى الكنيسة الإنجليكانية في بريطانيا.

وكانت قوة بريطانيا العسكرية تتمثل أكثر مما تتمثل فـــي قـــوة بريطانيـــا البحرية ، كما كانت هذه القوة العسكرية البحرية البريطانية هـــى التـــي توفـــر الحماية للسفن التجارية البريطانية وهى تجوب البحار حاملة البضائع التجاريـــة لحساب بريطانيا في كل البحار والمحيطات ، كما كانت تضرب بشـــدة الســـفن البحرية للدول الأخرى المنافسة في عصر الملكة اليزابيث الأولى بقيادة الســـير فرانسيس دريك (1540 – 1596م) على وجـــه الخصوص.

وإذا كانت بريطانيا قوة بحرية ،فلقـــد كانت إسبانيا قوة بحريـــة أيضـــا ، وكانت سفن إسبانيا الحربية تشكل الجانب الأكبر والأقوى في أسطول التحـــالف المسيحي الذي هزم أسطول الأتراك العثمانيين المسلمين فـــي معركـــة ليبـــانتو البحرية سنة 1571م ، وذلك تحـــت قيادة كل من "دون جون" و "ســـانتا كروز" ، مما جعل البحر المتوســـط بحيرة مسيحية بدلا مـــن أن يكـــون بحيرة إسلامية.

الملك فيليب الثاني ملك أسبانيا (1556–1598م)

وإذا كانت لبريطانيا مصالحـــها الاستعمارية والتجارية التي تعتمـــد أساسا على وجود أســـطول حربـــي بحري قوي ، فلقـــد كانت لأســـبانيا نفـــس المصـــالح الاســـتعمارية والتجارية.

وكانـــت إسبانيا ترغب بشدة في تحقيق رغبة البابا في أن تتحقق القوة والسيادة للدول الكاثوليكية ، وأن يحل الضعف وتلحق الهزيمـــة بـــالقوات البريطانية التي تحمي بريطانيا وكنيستها الإنجليكانية التي لا تخضع لنفوذ بابـــا

روما ، ولا يتم تحقيق هذا الهدف ، بل الأهداف المتداخلة إلا بهزيمة الأسطول البريطاني.

وقام الملك الإسباني فيليب الثاني (Philip II) بتجهيز أسطول إسباني كبير للقضاء على الأسطول البريطاني داخل المياه البريطانية ذاتها . وعلى الرغم من أن ملك إسبانيا كان قد فقد اثنين من أبرز قادة الأسطول وهما : دون جون Don John ، وسانتا كروز Santa Cruz لوفاة كل منهما بعد الانتصار في معركة ليبانتو ، فلقد أسند الملك فيليب الثاني قيادة أسطوله الذي كان قد أعده لتدمير الأسطول الإنجليزي إلى ابن عمه "ميدينا سيدونيا" Medina Sidonia ولم يكن لديه الخبرة الحربية الكافية .. وبلغ عدد السفن الحربية الإسبانية في أسطول الآرمادا مائة وثلاثين سفينة في ستة أقسام هى:

البرتغال (Portugal) – البيسكاي (Biscay) – جيبوزكاو (Guipuzcoa) الكاستيل (Castille) – أندالوزيا (Andalozia) – ليفانت (Livant) بالإضافة إلى 30000 رجل . ولقد كان من المقرر أن تنضم إلى هذه السفن الحربية الإسبانية قوات بحرية إسبانية أخرى تحت قيادة دوق بارما (Duke of Parma) التي كانت موجودة في المياه الهولندية وبها نحو 17000 رجل.

كان الأرمادا هو أسطول أسبانيا الذى لا يقهر ، كما أطلق عليه الأسبان أنفسهم.



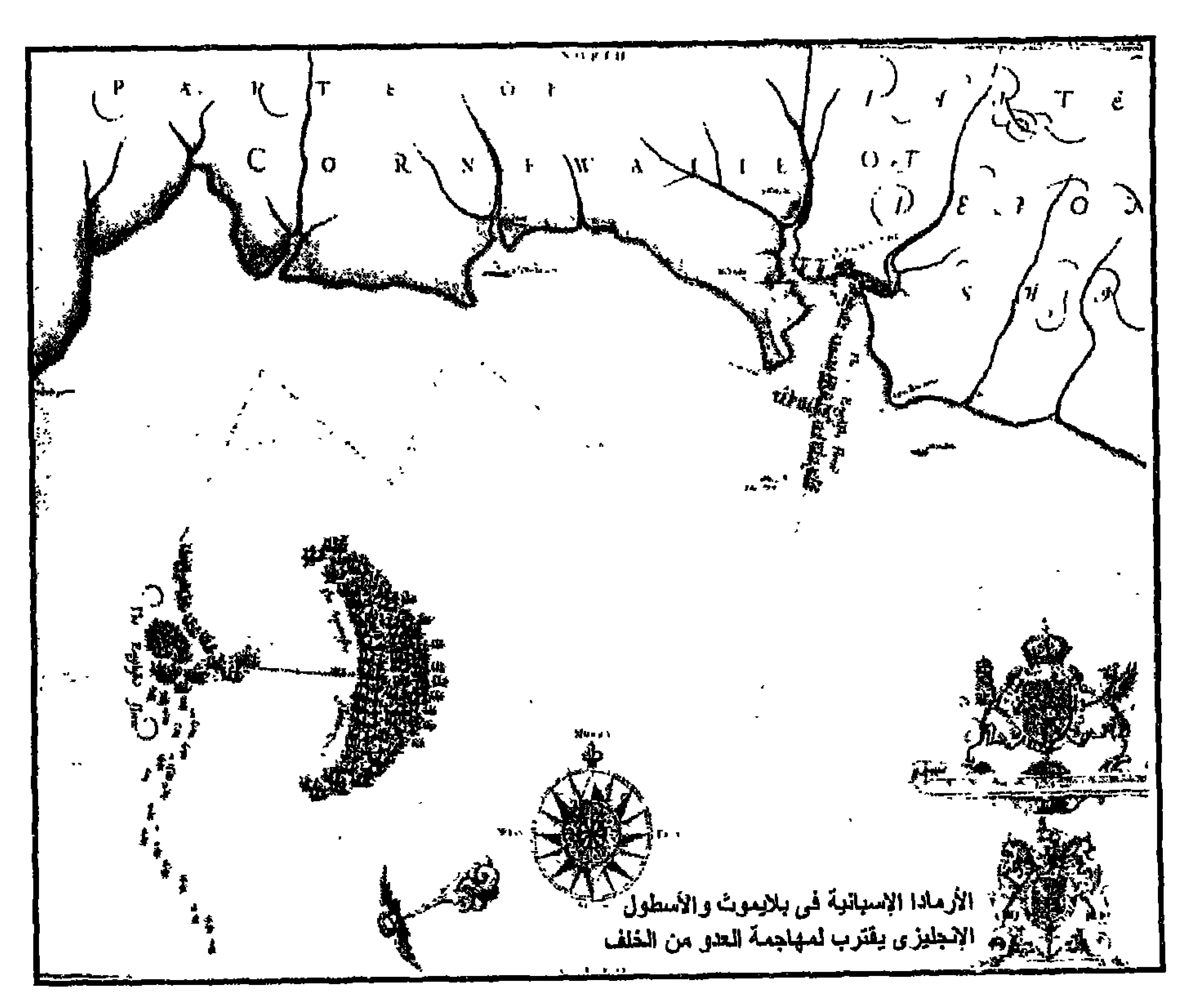
سير فرانسيس دويك

كان أسطول الأرمادا الإسباني قد تم تجهيزه لضرب وتحطيم الأسطول الإنجليزي في المياه الإقليمية الإنجليزية في نهر التيمز (Themes) نفسه ، وفي القنال الإنجليزي ليتمكن البحارة الإسبان بعدئذ من مهاجمة واحتلال العاصمة البريطانية لندن ذاتها ، حتى لا تقوم لبريطانيا ولا للكنيسة الإنجليكانية قائمة، وتغدو السيادة البحرية المطلقة ملكا لإسبانيا ، وتغدو السيطرة محكمة للبابا على كل العالم المسيحي ، إذ كانت بريطانيا هى أكبر دولة أوربية لا تخضع كنيستها لسيطرة البابا في روما . وكان الملك فيليب قد أوصى

ابن عمه مدينا سيدونيا قائد الأرمادا الإسبانية أن يقاتل بكل سفن الآرمادا مجمعة لكي يحمي بعضها بعض، ولقد حرص ميدينا سيدونيا على تنفيذ هذه الوصية على الرغم من أنها كانت غير ملائمة إذ كانت بعض سفن الآرمادا تحجب نيران بعضها الآخر مما أصاب سفن الآرمادا بما يشبه الشلل.

وكان السير فرنسيس دريك وهو قائد الأسطول البريطاني يمتاز بخبرات عسكرية بحرية ممتازة . وكان قد حطم سفينة القيادة في الآرمادا قبل عام من بدء المعركة مما كان يعتبر إهانة كبيرة للملك الإسباني شخصيا ، كما كان قد تمكن من أسر سفينة إسبانية تحمل اسم ملك إسبانيا عند جزر الآزور.

وبمجرد وصول الأنباء إلى لندن بتحركات الآرمادا الإسبانية في اتجاه الجزر البريطانية عمدت الملكة اليزابيث إلى إسناد قيادة الأسطول البريطاني إلى سير تشارلس هاوارد (Sir Charles Haward) – (1536–1624م) وكان قائدا لعموم البحرية البريطانية وذلك على الرغم من الكفاءة القتالية المشهود بها للسير فرنسيس دريك الذي أسندت إليه الملكة اليزابيث قيادة الأسطول الاحتياطي البريطاني في ميناء بلايموث .



الأرمادا الإسبانية فى بلايموث فى 21 يوليه 1588 والأسطول الإنجليزى يقترب لمهاجمة العدو من الخلف

وعلى الرغم من أن دريك كان يرغب في ملاقاة الآرمادا الإسبانية بعيدا عن الجزر البريطانية إلا أن الآرمادا كانت قد تقدمت بالفعل واقتربت من الجزر البريطانية وبدأت الدخول إلى القنال الإنجليزي . وانضم دريك ومعه ثلاثون سفينة حربية إلى سفن السير هاوارد للدفاع عن الجزر البريطانية ضد الآرمادا الإسبانية.

وكان الأسطول البريطاني يتكون من 102 سفينة حربية من أحجام مختلفة ، وكانت كلها مزودة بالمدافع القوية ، كما كانت خطوط مواصلاتها قريبة من أرض الوطن ، وكان جنود البحرية البريطانية لديهم خبرات كبيرة بالحرب البحرية، وكانوا أكثر خبرة بوجود الخلجان والتيارات المائية واتجاهات الريح ذات الأهمية البالغة في الحروب البحرية آنذاك.

الملكة إليزابيث الأولى

وفي يوم الجمعة الموافق 19 يوليو سنة 1588 كان الأسطول في بلايموث عندما تحرك أسطول الآرمادا من خليج كورونا لكي يدخل القنال الإنجليزي ، وأصبحت المعركة الحاسمة على وشك أن تبدأ . وكانت الرياح مواتية للأسطول البريطاني لكي يشن الهجوم على الآرمادا مما كان يتيح للإنجليز ميزة تكتيكية مهمة.

ولم يكن قائد الآرمادا يستطيع أن يدير معركة بحرية على نطاق واسع ، ولم تكن درجة قرابته باعتبار أنه ابن عم ملك إسبانيا تكفي لتأهيله لقيادة أسطول يدخل معركة ضد الأسطول البريطاني في المياه الإقليمية البريطانية . ولقد

حاول ميدينا سيدونيا أن يطبق حرفيا توصية ابن عمه ملك إسبانيا فحرص على أن يجعل تشكيل قتال سفن الآرمادا في كتلة واحدة ، بينما عمد سير هاوارد على تقسيم أسطوله أربعة أقسام ، وأتاح لكل قسم منها حرية الحركة والالتفاف لضرب سفن الآرمادا من مسافات بعيدة .

بوصلة دريك البحرية

وفي يوم 21 يوليو تمكن دريك من أن يأسر سفينة القيادة في أهم قسم من أقسام الآرمادا (الآندالوزيا) وأن يرسل بها إلى ميناء دارتسماوث هدية إلى ملكة بريطانيا.

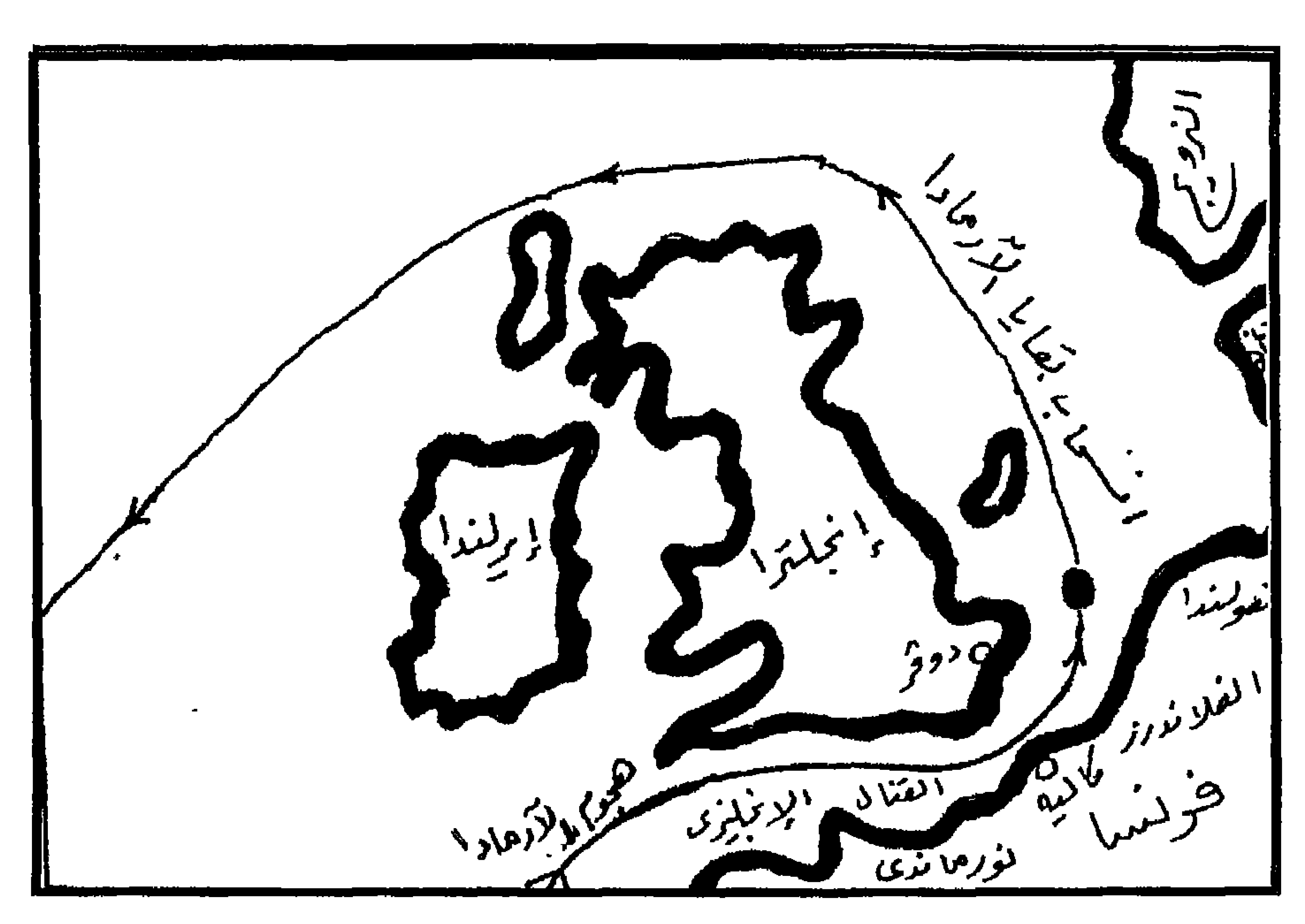
وهدأ القتال ، وهدأت الرياح ، ولكن الآرمادا لم تبد أي رغبة في القتال والاشتباك في المعركة الفاصلة ، بل إن ميدينا سيدونيا اقتاد سفن الآرمادا نحو الميناء الفرنسي كاليه في يوم 27 يوليو 1588 على أمل أن تلحق سفن أسطول بارما بالآرماد.

ووضع سير هاوارد خطته بحيث يقضي على سفن الآرمادا بالقرب من دوفر قبل أن تتصل بها سفن بارما . واعتمد على تكتيك إطلاق النيران على الآرمادا من بعد.

وهاجمت سفن الأسطول البريطاني الآرمادا وهى تطلق النيران الكثيفة مما جعل سفن الآرمادا تضطرب ويختل نظامها ، وتسعى كل سفينة إلى الهرب طلبا للنجاة وتفاديا للقتال مما كان يعني الهزيمة التامة لأسطول الارمادا.

وبطلوع فجر يوم الإثنين الموافق ليوم 29 يوليو 1588 كان أسطول الآرمادا في حالة عجز تام عن القتال ، وكانت بقايا سفنه تسعى للهرب في عرض البحر ، وأصبح الشغل الشاغل لقائد الآرمادا ميدينا سيدونيا هو إنقاذ ما تبقى من سفن الآرمادا من الدمار التام . وكانت فرصة نجاحه شبه معدومة إذ

كانت بقايا سفن الآرمادا محصورة بيــن جريفلانــيز (Gravelines) ودنكــرك (Dunkirk) بينما كان الهولنديون يضايقون قاعدة إمدادات الآرمادا في جزيرة فلاشينج (Flushing) لكي يحولوا بينهم وبين استخدام إمكانات ميناء أنتورب (Antwerp) وكان طريق العــودة بالرجــوع في القنال الإنجليزي من حيــث دخلت سفــن الآرمادا مستحيلا لوجود نيران سفن الأسطول البريطاني ، وقلــت أغذية ومؤن وذخائر سفن الآرمادا حيث كانت محرومة من أي إمــدادات أثنــاء توقف القتال وقبل الدخول في المعركة مباشرة ، بينما لم تكن ســفن الأســطول البريطاني تعاني من أي مشاكل في الإمــدادات والتموين وانضمام سفن أخــرى وذخائر إلى سفن الأسطول البريطاني ليزداد حجما وقدرة على مواصلة القتال . وطوال ثماني ساعات ظلت سفن سير هاوارد تطارد بقايا سفن الآرمــــادا فــي فرارها شمالا يوم 30 يوليو 1588 حتى وصلــت إلــى نيوكاســل أون تــاين (Newcastle-on-Tyne) ثم كف عن ملاحقتها.



انسحاب بقايا الآرمادا فى يوم 30 يوليو 1588 م

وبهزيمة الآرمادا في القنال الإنجليزي في شهر يوليو عام 1588 ، فشلت إسبانيا في غزو بريطانيا والقضاء على قوتها البحرية لتزداد البحرية البريطانية قوة وتزداد البحرية الإسبانية ضعفا ولتصول السفن البريطانية في المحيط الأطلسي وفي البحر المتوسط وتجول دون مناوئ أو منافس . وعندما حاول الملك الإسباني فيليب الثاني إعادة بناء آرمادا أخرى دمرها له الهولنديون الذين كانوا يحاولون أيضا فرض سيادتهم وسيطرتهم البحرية لتحقيق المكاسب الاستعمارية والتجارية بالقرب من دوفر في القنال الإنجليزي أيضا تحت مراقبة الأسطول الإنجليزي سنة 1639 وكانت سفن الأسطول الهولندي بقيادة مارتن ترومب (Marten Tromb) بينما كانت سفن الآرمادا بعد تجديدها بقيادة الأدميرال الإسباني أوكويندو (Oquendo).


تخليدا لانتصار الإنجليز على الآرمادا

ميدالية تذكارية كتب عليها باللاتينية "ضربهم الله فبدد شملهم"

كانت هزيمة الآرمادا الأسبانية ضربة قاصمة لمكانة إسبانيا وهيبتها ، لأنها كانت من أقوى دول العالم فى ذلك الوقت ، وعلى الرغم من أن إسبانيا ظلت لفترة طويلة بعد المعركة كقوة كبرى ، إلا أن التجار والبحارة الإنجليزية اكتسبوا مزيدا من الثقة التى رجحت كفتهم على الإسبانيين فى شتى أرجاء العالم نتيجة هذا الانتصار.



معركة ساوند The Sound (1658)م

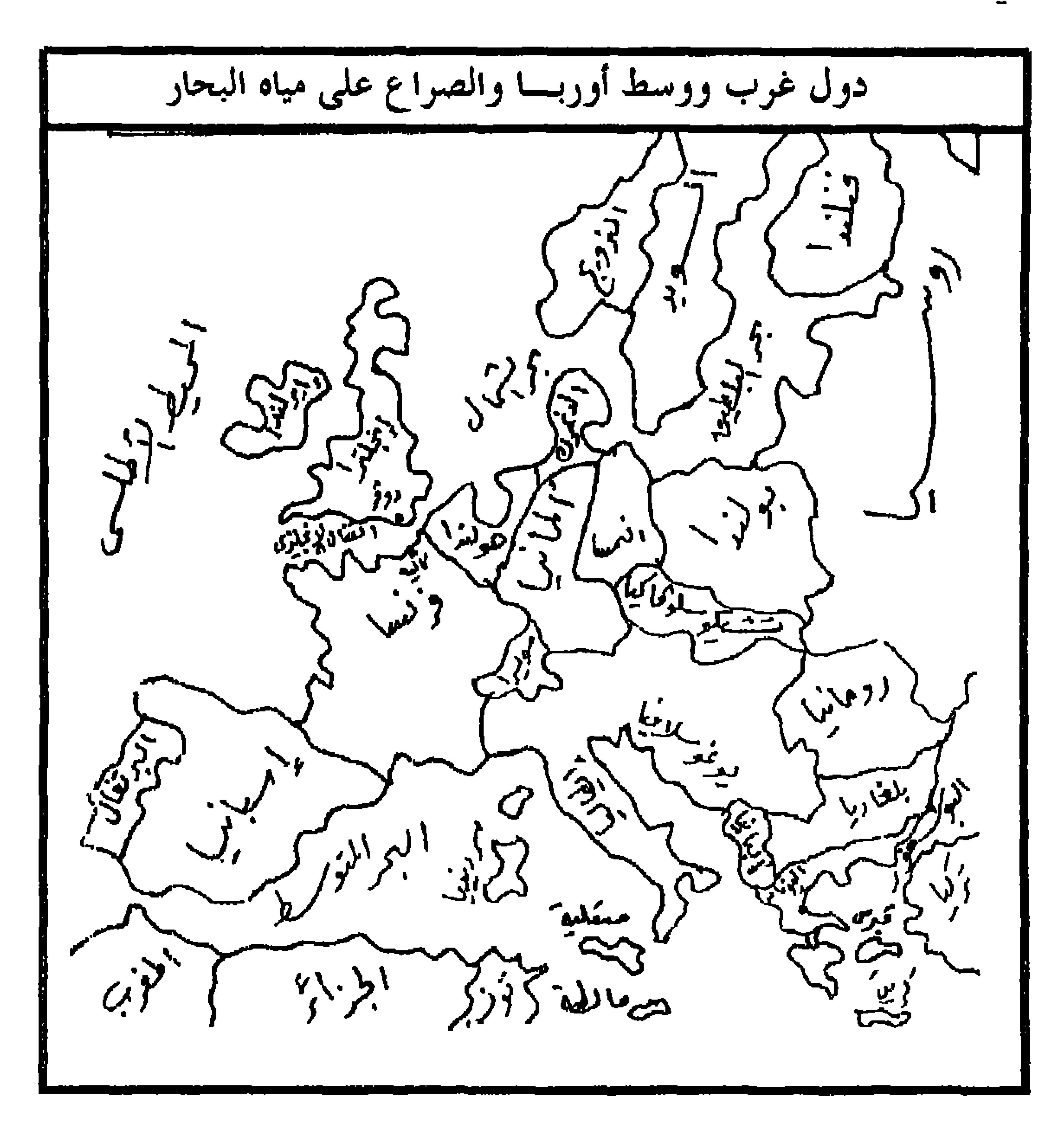
وكأنما ضاقت أراضى دول أوربا عن معارك دول أوربا فـامتدت رقعـة الحروب البحرية لتشمل بحار دول شمال أوربا أيضا. وأصبح كل مـن بحـر الشمال وبحر البلطيق مثار نزاع بحرى لا يقل احتداما عن الصـراع البحـرى للسيطرة على البحر المتوسط.

وفـي سنة 1654 اعتلى الملك شارل جوستاف **(Charles Gustavus)** عرش السويد ، وكان يرغب في السيطرة على كل الدول الاسكندنافية حول بحر البلطيق وبحر الشمال في هولندا وبلاد الدانمرك . وبـدأ بحصار ميناء دانـزج (Danzig) مما أثـار حفيظة هولنـدا ؛ لأن ميناء دانـزج كان يعتبر مينـاء تجارة القمح بالنسبة لدول شمال غرب أوربا . والقمح سلعة استراتيجية بطبيعـة الحال.

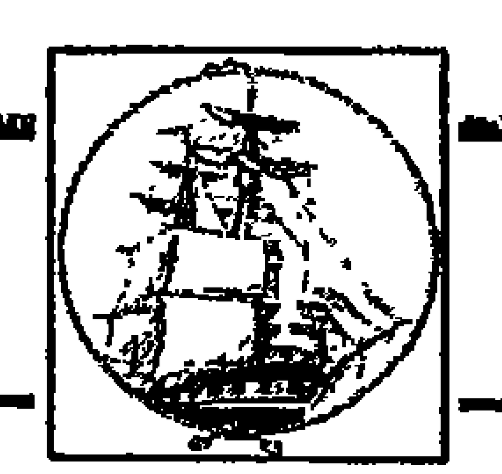
وفـي عام 1654 م أرسلت هولندا تحت ضغط كبار التجـار الـهولنديين أسطولا حربيا مكونا من 42 سفينة حربية مسلحة لرفع الحصار السويدي عـن ميناء دانزج بقيادة الأدميرال أوبدام (Obdam) الذي تمكن من طـرد السـفن السويدية من حول ميناء دانزج.

ولكـن ملك السويد لم يستسلم لهذه المقاومة الهولندية لنفوذه وسيطرته على الميناء الدانمركي دانزج ، فصمم على غزو الدانمرك كلها وإخضاعـها لنفـوذ السويد ، وبعث أسطولا سويديا ضخما يحمل قوات برية كبيرة تمكنـت مـن فرض شروط صلـح على حكومة الدانمرك في شتاء عام 1658م بحيث تصبح كل موانى الدانمرك والمياه الإقليمية للدانمرك مغلقة فـي وجـه السـفن غـير السويدية . وازداد تضرر هولندا من هذا الإجراء.

ومــرة أخرى أرسلت الحكومة الهولندية أسطولا بقيادة الأدميرال أوبـــدام لطرد السفن والقوات السويدية من الدانمرك . وبعد قتال محتـــدم بيــن الســفن الحربية الهولندية والسفن الحربية السويدية ووقوع خسائر جســيمة لكــل مــن الطرفين إلى حــد كان من المتعذر معه أن يقطع أحــد برأي بشأن مـــن هــو الجانب المهزوم ومن هو الجانب المنتصر ، إلا أن وصول أسطول هولندي آخر يحمل 12000 مقاتل هولندي حسم المعركة لصالح الجانب الـــهولندي وقضــى على آمال ملك السويد في السيطرة على موانئ الدانمرك ، وانتزعت هولندا حق مرور سفنها في الموانى الدانمركية في أعقاب هـــذه المعركة البحريـــة التـــي يطلق عليها معركـــة "الساونــــد" (**The sound**) في عــام 1658م وكان من نتائج معركة الساوند أيضا تقرير حرية الملاحة لكل الدول في بحر الشمال وفي بحر البلطيق ، ولا تقل أهمية حرية الملاحة في هذين البحريـــن عـــن حريـــة الملاحة في البحر المتوسط نفسه.



دول غرب ووسط أوربـــا والصراع على مياه البحار

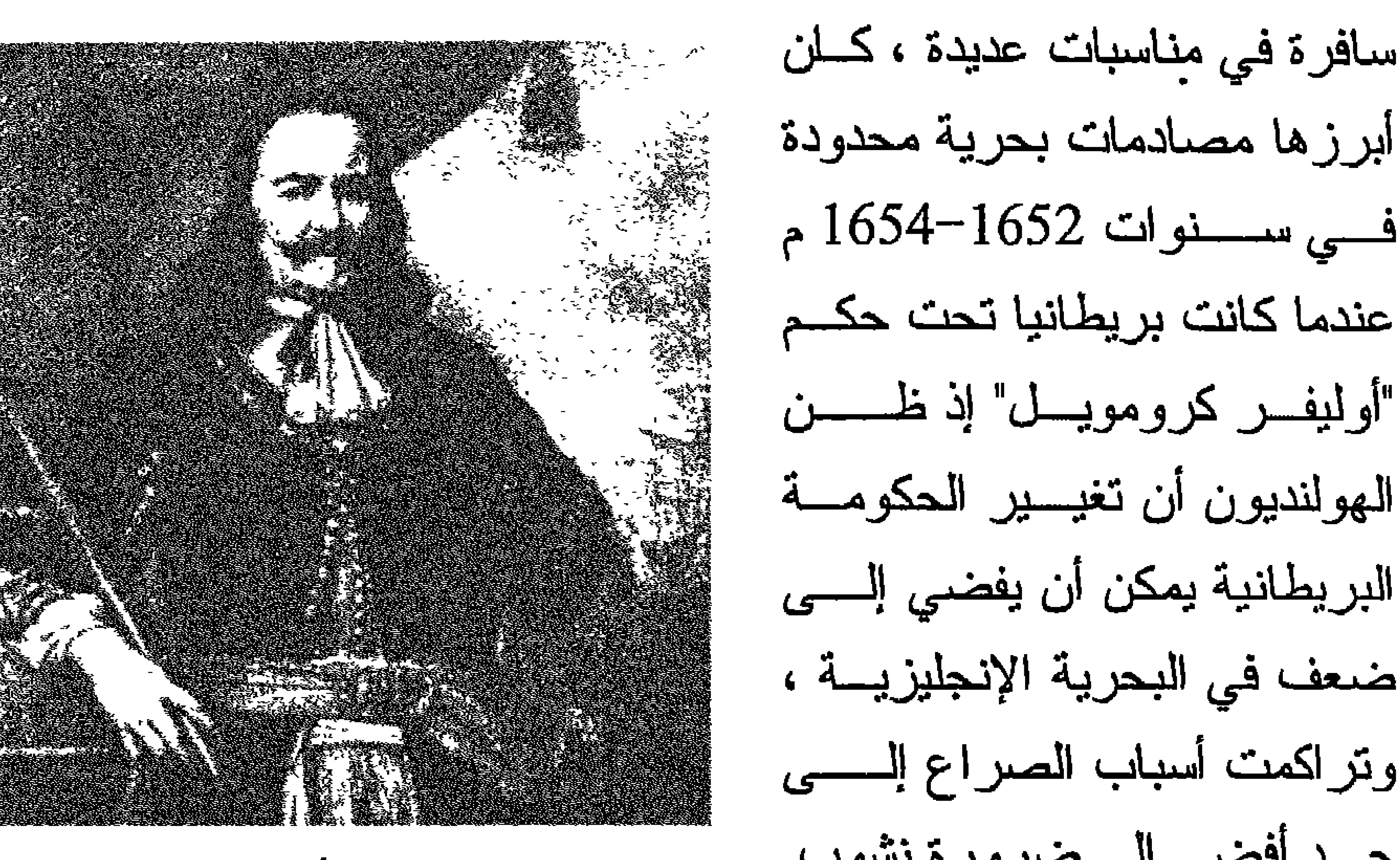


معركة الأيام الأربعة (1666م)

The Four- Days' Battle

على الرغم من التعاون الذي كان موجودا بين الأسطول الهولندي والأسطول الإنجليزي في القضاء على سطوة الأسطول الإسباني ، إلا أن التنافس على السيطرة البحرية كان موجودا أيضا بين الإنجليز والهولنديين لأسباب تتعلق بالسيطرة على المستعمرات والتسابق للحصول على أكبر نصيب، منها فضلا عن التنافس التجاري وأرباح النقل البحري.

واتخذ هذا التنافس في السيطرة البحرية بين الإنجليز والهولنديين صورة سافرة في مناسبات عديدة ، كان أبرزها مصادمات بحرية محدودة في سنوات 1652-1654 م عندما كانت بريطانيا تحت حكم "أوليفر كرومويل" إذ ظن الهولنديون أن تغيير الحكومة البريطانية يمكن أن يفضي إلى ضعف في البحرية الإنجليزية ، وتراكمت أسباب الصراع إلى حد أفضى إلى ضرورة نشوب معركة بحرية بين الهولنديين وبين الإنجليز، عندما تقدم الأسطول الهولندي بقيادة الأميرال دي رويتر (De Ruyter) إلى القنال الإنجليزي يريد تحطيم الأسطول الإنجليزي ، وهو ما فشل في تحقيقه أسطول الآرمادا من قبل ، ولكن الهولنديين كانوا يأملون أن ينجحوا فيما فشل فيه أسطول الآرمادا الإسباني ، وكان ملك فرنسا لويس الرابع عشر (Louis XIV) قد وعد الهولنديين بالمساعدة في القضاء على سيطرة الإنجليز على البحار. وبدخول الأسطول الهولندي إلى



دى رويتر قائد الأسطول الهولندى

القتال الإنجليزي بدءا من اليوم الأول من شهر يونيو 1666 م ، بدأت معركة الأيام الأربعة (The Four Days Battle) بين الأسطول الهولندي والأسطول الإنجليزي.

كان يقود الأسطول الإنجليزي الأدميرال جورج مونك (دوق ألبيمارل) (George Monck) وكان في الستين من عمره ، وكان قد حارب في صف واحد مع الهولنديين ضد الإسبان من قبل ، وكان قد لعب دورا مهما في عودة الملكية إلى بريطانيا بعد موت كرومويل ، ولذلك كان الملك شارل يثق في قيادة الأدميرال جورج مونك للأسطول الإنجليزي إلى جانب الأمير روبيرت (Rupert) .

جورج مونك (1608-1670)

ونظرا لتخوف الإنجليز من مساعدة الفرنسيين للهولنديين في حربهم ضد الإنجليز، عمد الإنجليز إلى تخصيص جزء مهم من الأسطول الإنجليزي للتعامل مع السفن الحربية الفرنسية لو جاءت لمعاونة الهولنديين ، وكان ذلك الجزء من الأسطول الإنجليزي المكرس لمواجهة احتمال تدخل الفرنسيين إلى جانب الهولنديين تحت قيادة الأمير روبيرت.

وأفضى تكريس جزء من الأسطول الإنجليزي لمواجهة احتمال تدخل الفرنسيين إلى إضعاف الأسطول الإنجليزي عند اشتباكه مع الأسطول الهولندي، وحدثت خسائر جسيمة لكل من الطرفين من جراء تبادل الهجمات بين السفن الحربية ، ولحسن حظ الإنجليز سمع الأمير روبيرت دوى مدافع السفن في المعارك التي دارت بين الأسطولين ، وعندما تأكد من عدم تدخل الفرنسيين في المعركة أسرع بسفنه لمناصرة الأدميرال جورج مونك مما جعل كفة الأسطول الإنجليزي ترجح على كفة الأسطول الهولندي.

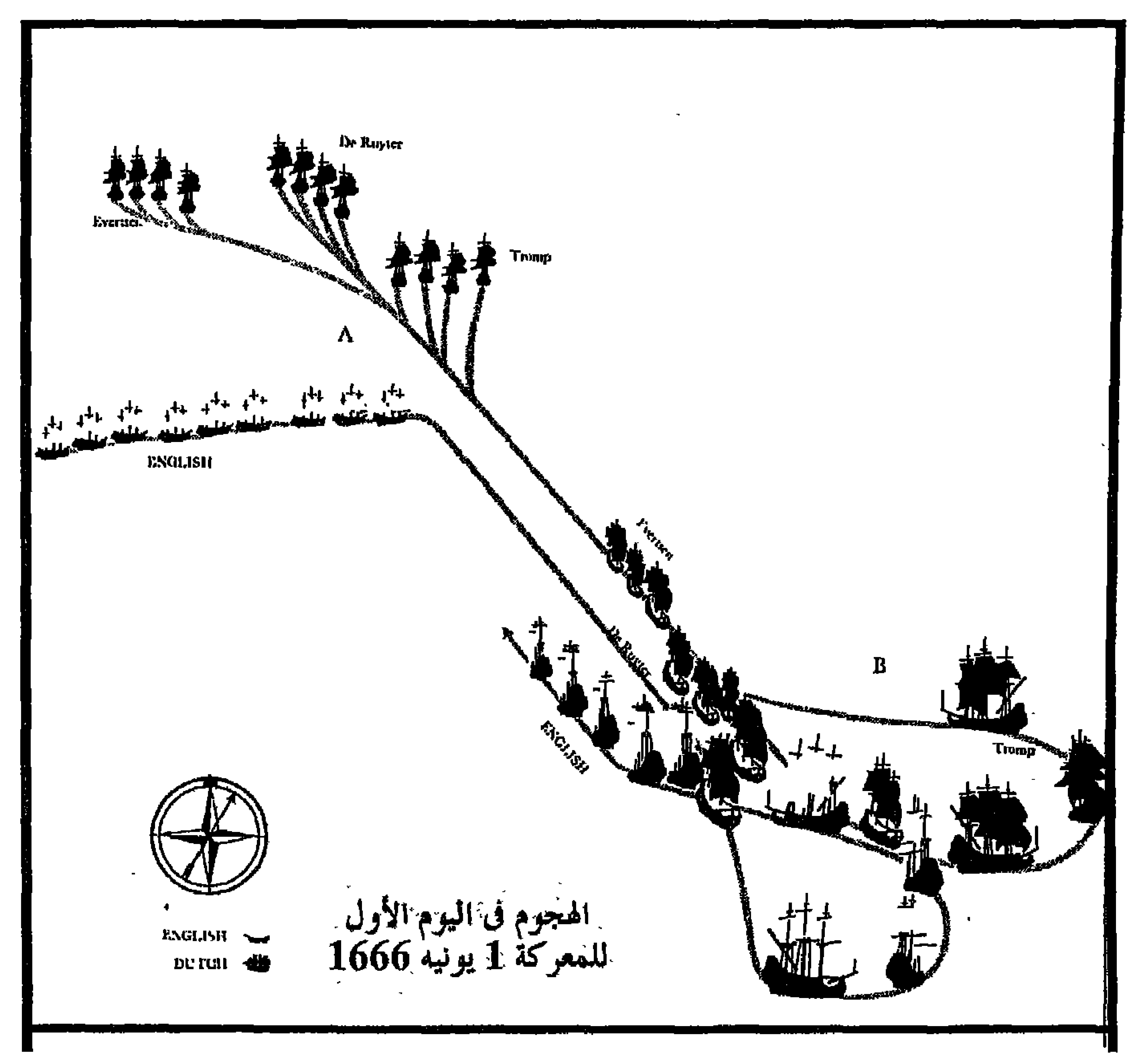
ومن المتعذر تحديد من المنتصر ومن المهزوم في مثل هذه المعارك البحرية التصادمية. لقد أصيبت -بالدمار أو العطب الشديد- سفن حربية عديدة لكل من الطرفين . وشرط الانتصار في المعارك هو أن تدمر قوات الطرف المنتصر قوات الطرف المهزوم إلى حد كبير يجعلها عاجزة عن مواصلة القتال دون وقوع خسائر في الجانب المنتصر أو تحمل الجانب المنتصر لخسائر طفيفة ، أما عندما يكبد كل من طرفي المعركة أحدهما للآخر خسائر فادحة ، فمن الصعب تحديد الطرف المنتصر والطرف المهزوم . وربما كان هذا التحديد سهلا في المعارك البرية عندما يدمر طرف جنود ومعدات طرف آخر مع الاحتفاظ بقواته وسلاحه وعتاده بحالة جيدة ، أو عندما يطرده من مساحات مهمة من الأراضي المتنازع عليها ، ويضطره إلى الانسحاب منها. أما المعارك البحرية فهي تدور بطبيعة الحال فوق سطح مياه البحار، وليس الهدف هو احتلال مياه البحار ، ولكن الهدف هو تدمير السفن البحرية بحيث تتحقق السيطرة البحرية لطرف دون الآخر في القدرة على الملاحة في مياه بحر معين أو محيط من المحيطات دون أن يتمكن الطرف الآخر من ذلك ؛ لأن سفنه الحربية قد تم تدميرها في معركة بحرية حدثت من قبل.

استمرت هذه المعركة بين الإنجليز والهولنديين لمدة أربعة أيام ، دامت فيها الاشتباكات بين سفن الأسطول الإنجليزي والأسطول الهولندي بدءا من يوم 1 يونيو حتى 4 يونيو 1666م وكانت معركة جديرة بأن يطلق عليها اسم معركة الأيام الأربعة (The Four Days Battle).

وانسحبت بقايا الأسطول الهولندي من مياه القنال الإنجليزي مثقلة بالخسائر كما انسحبت بقايا الأرمادا الإسبانية من قبل ، وفشل الهولنديون كما فشل الإسبان في تدمير قوة إنجلترا البحرية.

لماذا نقول: إن الهولنديين قد فشلوا كما فشل الإسبان من قبل في تدمير قوة إنجلترا البحرية ؟

إن تحقيق الهدف الاستراتيجي للحرب هو الذي يحدد مدى النصر أو الهزيمة والفشل في الحرب.



الهجوم في اليوم الأول
للمعركة 1 يونيه 1666

ماذا كان هدف الإسبان والهولنديين عندما يتوجهون بأساطيلهم الحربية إلى القنال الإنجليزي وإلى الجزر البريطانية ؟ الهدف بطبيعة الحال هو تدمير الأسطول الإنجليزي واحتلال أراضي الجزر البريطانية وإخضاع بريطانيا لنفوذ وسيطرة الغزاة. وعندما تتحمل سفن الأسطول الإنجليزي خسائر مهما تكن فادحة ، وتتحمل سفن أسطول الغزاة خسائر فادحة ولا يتمكن جنود أسطول الغزاة من احتلال أراضي الجزر البريطانية يكون الغزو قد فشل.

وتعمد الدولة المهاجمة بطبيعة الحال إلى بناء أو شراء سفن حربية أخرى، كما تعمد إلى ذلك الدولة المدافعة عن مياهها الإقليمية وأراضيها. وهذا بالضبط هو ما فعلته إسبانيا بعد تدمير الآرمادا ، وهذا بالضبط هو ما فعلته هولندا بعد الخسائر الفادحة التي تكبدها الأسطول الهولندي في معركة الأيام الأربعة ، ولكن الغزو في الحالتين يكون قد فشل تماما في تحقيق هدفه .

ويبني الإنجليز من جديد سفنا أقوى من السفن التي خسروها في دفاعهم عن جزرهم وعن سيادتهم وسيطرتهم البحرية.

ومن الواضح أن الآرمادا الإسبانية والأسطول الهولندي في معركة الأيام الأربعة كان كل منهما يهدف إلى تحطيم الأسطول الإنجليزي أولا في بحر المانش أو القنال الإنجليزي ، ثم يحتل مشاة الأسطول في الحالتين الأراضي البريطانية للقضاء على سطوة بريطانيا ونفوذها الكبير بحرا وبرا . وبالغا ما بلغت الأضرار الجسيمة التي كانت تلحق بسفن الأسطول الإنجليزي من جراء كل من هاتين المعركتين البحريتين في المياه الإقليمية الإنجليزية إلا أن تلك الأضرار التي كان يحدثها الأسطول البريطاني في أي أسطول مهاجم للشواطئ البريطانية كانت تجعله عاجزا عن مواصلة القتال بحرا ، وعاجزا عن الغزو البري للأراضي البريطانية أيضا. وبعد فشل الآرمادا الإسبانية في تدمير الأسطول البريطاني وغزو الأراضي البريطانية في الجزر البريطانية ذاتها سنة 1588م ، وبعد فشل هولندا في معركة الأيام الأربعة في تحقيق نفس الهدف سنة 1666م رسخت حقيقة أن الجزر البريطانية يستحيل غزوها عن طريق البحر.

ولم يجرؤ نابليون بونابرت (Napoleon Bonaparte)(1769–1821م) على غزو بريطانيا بحرا في صميم الجزر البريطانية فأراد بغزو مصر سنة 1798م خنق بريطانيا برا لتأكده من استحالة التغلب عليها بحرا . وأراد هتلر أن يغزو بريطانيا جوا أثناء الحرب العالمية الثانية لاستحالة التغلب عليها بحرا في عام 1940م . وفشلت خطة نابليون في خنق مواصلات بريطانيا برا كما فشلت خطة هتلر في تدمير بريطانيا جوا.

ولكن قوة الإنجليز البحرية كانت باستمرار هى صمام الأمان لبقاء وازدهار قوة ونفوذ بريطانيا طوال عصور التاريخ. ولا عجب في ازدهار قوة بريطانيا البحرية ، إذ يحيط البحر بالجزر البريطانية من كل الجهات مما دفع الإنجليز إلى الاهتمام بفنون الحرب البحرية ، وبناء واستخدام السفن الحربية المسلحة بأحدث وأقوى الأسلحة ، مع توارث الخبرات البحرية بين القادة

العسكريين جيلا بعد جيل ، مما جعل مؤرخا عسكريا فرنسيا يقول : "لا شـيء يضارع النظام الإنجليزي الجميل في البحر. إنهم يصبون كل نيرانهم على أولئك الذين يقتربون منهم.

ويردد الإنجليز هذه المقولة دائما وهم يفخرون بقواتهم البحرية :

> "Nothing equals the beautiful order of the English at sea . They bring their fire to bear upon those who draw near them."

ولـم تحاول فرنسا الدخول جديا في صراع بحري ضد الإنجليـز رغـم محاولاتها بناء أسطول فرنسي قوي . وقد استطاع الأسطول الفرنسـي بقيـادة الأدميرال الفرنسي "ديكويزن" (Duquesne) أن يـهزم الأسـطول الـهولندي المتحالف مع الأسطول الإسباني عند جزيرة صقلية (Sicily) في عام 1676م . وجرح الأدميرال الهولندي الشهير دي رويتر (De Ruyter) جرحا مميتا فـي هذه المعركة التي مكنت فرنسا من السيطرة على جزيرة صقلية ، مما يدل علـى أن فرنسا كانت تحاول فرض شـيء من السيطرة البحرية في البحر المتوسـط على حساب الإسبان والهولنديين وليس على حساب الإنجليز.

ولكـن الإسبان حاولوا بعد ذلك التحالف البحري مع الأسطول الفرنسي في عهد لويس الرابع عشر ، فعمـد الإنجليز إلى التحالف مع الأسطول الهولندي . وفي عام 1704م تمكن الأسطول الإنجليزي بقيـادة الأدمـيرال جـورج روك (George Rooke)(1650 -1709) وبمساعدة الأسطول الهولندي من هزيمـة التحالف البحري للأسطول الإسباني مع الأسـطول الفرنسـي فـي معركـة جبرالتـار (Gibraltar) سنة 1704م . وجبرالتـار إنمـا هـي تحريـف للكلمتين العربيتين "جبـل طارق" . أسفرت معركة جبرالتار هذه عـن تحكـم

بريطانيا في مضيق جبل طارق عند مدخل البحر المتوسط من ناحية المحيط الأطلسي مما أعطى بريطانيا مركزا بحريا مهما في أهم بحار العالم.

وأثناء حرب السنين السبع في أوربا (1756 – 1763م) ، حاولت فرنسا بناء أسطول قوي حديث في مواني نورماندي ، فهاجمت السفن البريطانية بقيادة الأدميرال جورج رودني (George Rodney) السفن الفرنسية في ميناء الهافر ودمرتها في شهر يوليو عام 1759 ، كما هزم الأدميرال بوسكاون (Boscawen)أسطولا فرنسيا بقيادة المارشال لاكلو (La clue) قرب ميناء طولون في أغسطس من نفس العام ، ثم وجه الأسطول البريطاني ضربة أخرى بقيادة سير إدوارد هوك (Sir Edward Hawke) إلى الأسطول الفرنسي في نوفمبر من نفس العام في ضربات متلاحقة قام الأسطول الإنجليزي بتوجيهها إلى الأسطول الفرنسي حتى لا تنازع فرنسا بريطانيا في السيطرة على البحار. وفي نهاية عام 1759م وجهت بريطانيا ضربة ساحقة للأسطول الفرنسي في معركة كوبرون (Quiberon).

وهكذا كانت المعارك الحربية البحرية لا تهدأ بين الدول الأوربية لتحقيق السيطرة البحرية التي تنافس عليها أساطيل الدول الأوربية القوية وفي مقدمتها إنجلترا ، التي عجز الإسبان والهولنديون ثم الفرنسيون عن التغلب على الأساطيل البريطانية أولا ثم تحقيق السيطرة البحرية للأساطيل الحربية والتجارية البريطانية في المحيط الأطلسي والبحر المتوسط وحول رأس الرجاء الصالح وكل بحار العالم . ونتج عن ذلك ازدهار التجارة والصناعة في إنجلترا واتسع نطاق المستعمرات البريطانية وحصلت بريطانيا على نصيب الأسد من هذه المستعمرات.

معركة "أبو قير" البحرية (1798م)

أو : معركة النيل (The Nile Battle)

تقديرا لعظمة وأهمية انتصار الإنجليز في معركة أبي قير البحرية سنة 1798م يطلق الإنجليز على هذه المعركة اسم "معركة النيل" لأن النيل نهر شهير تناسب أهميته وشهرته شهرة وأهمية هذه المعركة من وجهة النظر الإنجليزية.

ويعتبر المؤرخون هذه المعركة نقطة تحوّل في تاريخ مصر وتاريخ أوربا وتاريخ العالم بأسره إلى حد كبير.


نابليون بونابرت

وترجع أهمية معركة أبي قير البحرية أيضا إلى أنها قد أبرزت نتيجة الصراع بين الاستراتيجية الإنجليزية التي تعتمد على القوات البحرية ، والاستراتيجية الفرنسية التي تعتمد على القوات البرية ، وكانت مصر بسواحلها المفتوحة شمالا على البحر المتوسط ميدانا مناسبا لإظهار تفوق استراتيجية البحر على استراتيجية البر، كما أن هذه المعركة قد أسفرت عن استقرار السيادة البحرية للأسطول الإنجليزي دون منازع في بحار العالم بعد أن تغلب على المنافسة الإسبانية بتحطيم الآرمادا سنة 1588م وبعد أن تغلب الأسطول الإنجليزي أيضا على الأسطول الهولندي في معركة الأيام الأربعة سنة 1666م ثم في معركة جبل طارق 1704م ، ولم يبق إلا القوة البحرية الفرنسية التي كانت قد أحجمت عن الدخول في حرب بحرية

مع الأسطول الإنجليزي وإن اجتهدت فرنسا في بناء أسطول قوى كانت تجربته الكبرى في مصاحبة حملة نابليون بونابرت (1769-1852م) (Napoleon Bonaparte) التي جاءت إلى مصر في عام 1798م.

وترجع أهمية معركة أبي قير البحرية أيضا إلى أنها قد حسمت صراعا كان محتدما بين حكومة الإدارة الفرنسية التي أدارت شئون فرنسا بعد الثورة الفرنسية والدول الأوربية الكبرى مثل بريطانيا والنمسا وروسيا وإسبانيا وتركيا التي دخلت في حروب ومحالفات ومعاهدات علنية وسرية ، وحسمت معركة أبي قير البحرية هذا الصراع لصالح بريطانيا حسما أكيدا.

ومن المدهش أن نابليون بونابرت عندما وصل على رأس الحملة الفرنسية إلى مصر حاول أن يوهم الأتراك أنه جاء إلى مصر لإخضاع مصر للحكم العثماني ، وللقضاء على تمرد المماليك في مصر وعدم انقيادهم للسلطان العثماني ، باعتبار أن تركيا دولة صديقة لفرنسا ، بالضبط كما حاول أن يوهم الشعب المصري بأنه قد جاء لتخليصهم من ظلم وجور المماليك ولنصرة خليفة المسلمين وإعلاء شأن الإسلام وحاول أن يتقرب من المصريين بمختلف الوسائل، فمنح الشيوخ الأوسمة والأوشحة ، وشارك المسلمين أعيادهم الدينية .. وسعى لإقناعهم أن فرنسا حليفة الإسلام والمسلمين، كما يتضح هذا جليا من المنشور الذى وزعه على المصريين بالعربية عند نزوله الإسكندرية ، وقد جاء فى هذا المنشور:

"إذا قيل لكم أنّى آتٍ لأعبث بدينكم فلا تصدقوا ، بل أجيبوا بأنى ما جئت إلا لأعيد إليكم حقوقكم وأقتص لكم من مغتصبها (المماليك) ، وإنى أحترم الله ونبيه وقرآنه أكثر مما يحترمه المماليك .. فنحن الأصدقاء الحقيقيون للمسلمين، ألم نخرج على البابا لأنه كان يدعو لمحاربة المسلمين ؟!".

وكان نابليون يلح في رسائله إلى "حكومة الإدارة" في باريس لكي تسارع إلى سفر" تاليران" ، وزير خارجية فرنسا إلى تركيا لكي يقنع السلطان العثماني أن فرنسا لا تزال دولة صديقة لتركيا ، وأن الحملة الفرنسية في مصر إنما هى لإخضاع مصر لنفوذ السلطان العثماني للحصول على موافقته على احتلال فرنسا لمصر.

وكانــت هذه مجرد أكاذيب نابليونية لم تلبث أن انكشــفت ، ولــم يســافر "تاليران" آنذاك إلى تركيا ، وقبض الأتراك على السفير الفرنســي فــي تركيــا وأودعوه السجن مع موظفي السفارة الفرنسية ، وعملت تركيا بمساعدة الإنجليز على توجيه الحملات العسكرية العثمانية لمحاولة طرد جيش نابليون من مصر ، مما اضطر نابليون إلى محاولة غزو فلسطين والشام ، إلى أن فشل في حصــار عكــا، فرجع عنها مع بقايا جيشه الذي أصاب الطاعون عددا كبيرا من جنوده ، لكي يجد أشــد العناء في محاولة إخماد ثورة المصريين عليه فــي القــاهرة ، وكانت هزيمة الأسطول الفرنسي أمام الأسطول الإنجليزي في معركة أبي قــير البحرية هى السبب المباشر في تشجيع تركيا لكي تعلن الحــرب علــى جيــش نابليون في مصر ، كما كانت السبب في إقدام المصريين علــى الثــورة ضــد الفرنسيين ثورات متكررة.

كــان نابليون بونابرت قد تحرك في يوم 19 مــايو ســنة 1798م كقــائد للأسطول الفرنسي للحملة الفرنسية على مصر من ميناء طولون علــى ظــهر السفينة "لوريان" التي كان بها ثلاثة صفوف من المدافع ، في كل صف أربعـون مدفعا . وكان في الأسطول الفرنسي المصاحب للحملة الفرنسية 13 بارجة يبلــغ عدد مدافعــها 1026 مدفعــا بالإضافــة إلــى 42 فرقاطــة ، و 130 ناقلــة عليها ١٧٠٠٠ جندي بحري و ١٧٠٠٠ جندي من القوات البرية ، وكــان فــى جيشه 1000 قطعة مدفعية ميدان و٥٦٧ عربة و ٧٠٠ حصان وكميات كبيرة من ذخيرة المدافع وذخيرة الأسلحة الصغيرة . وكــان من المقرر أن تنضــم إلــى حملة نابليون بونابرت على مصر سفن فرنسية أخرى كانت تعمل فــي جــزر البحر المتوسط ليصل عدد سفن الأسطول الفرنسي إلى 400 سفينة وليصل عدد جنود حملة نابليون على مصر إلى 55000 جندي ووصلت هذه الحملة الضخمة إلى الإسكندرية في يوم29 يونيو 1798م واحتلها فى 2 يوليــو. وكــانت فــى طريقها قد استولت على جزيرة مالطا التى كان يسيطر عليها فرســان القديــس يوحنا.

وكانــت هذه القوات معــدة في الأصل لغزو الجزر البريطانية ذاتها بقيــادة نابليون ، ولكن نابليون بعد استطلاعه القوات في منطقة نورماندي أرسل تقريره

إلى حكومة الإدارة مؤكدا أن هذه القوات غير كافية لغزو بريطانيا أو للتغلب على قوة بريطانيا البحرية ، وأوصى بالعمل على إضعاف بريطانيا وذلك لا يتأتى إلا باحتلال فرنسا لمصر، وقطع طريق المواصلات بين بريطانيا والهند إذ كانت الهند تمثل المصدر الأساسي للثروة البريطانية . وذلك بتحويل البحر المتوسط إلى بحيرة فرنسية باحتلال مصر واحتلال الجزر المهمة في البحر المتوسط وبذلك يتم خنق بريطانيا. وهذا لا ينافى رغبة فرنسا الأصيلة فى احتلال مصر ، وليس أدل على ذلك من تلك البعثة العلمية التى صاحبت الحملة، وكانت تضم أعداد كبيرة من علماء الرياضيات ، والفيزياء ، والكيمياء ، والطب، والصيدلة ، والزراعة ، والبيولوجيا ، وخبراء فى المساحة ورسم الخرائط .. ويتضح من هذا أن الغاية من الحملة كانت ، بالإضافة إلى الاحتلال، دراسة مصر والشام دراسة دقيقة تمهيدية للاستفادة من جميع موارده.

ومن هنا نستطيع أن ندرك السبب في اهتمام بريطانيا بالتصدي لحملة نابليون على مصر وتكليف أسطول إنجليزي بقيادة هوراشيو نيلسون (Horatio Nelson) (1758 – 1805م) بهذه المهمة . نابليون يريد بغزو مصر أن يخنق بريطانيا ، وتريد بريطانيا أن تغرق حملة نابليون على مصر في مياه البحر قبل أن تصل إلى مصر . أما وقد نزل نابليون بكامل جيشه وسلاحه إلى أرض مصر فلقد أصبح تدمير أسطول هذه الحملة في مياه مصر مطلبا ضروريا لا يقل أهمية عن تدميره قبل وصوله إلى أرض مصر ليكون جيش نابليون محاصرا داخل مصر ويستطيع الأسطول البريطاني بتدميره أسطول نابليون أن يقطع خطوط مواصلات وتموين الحملة الفرنسية على مصر.

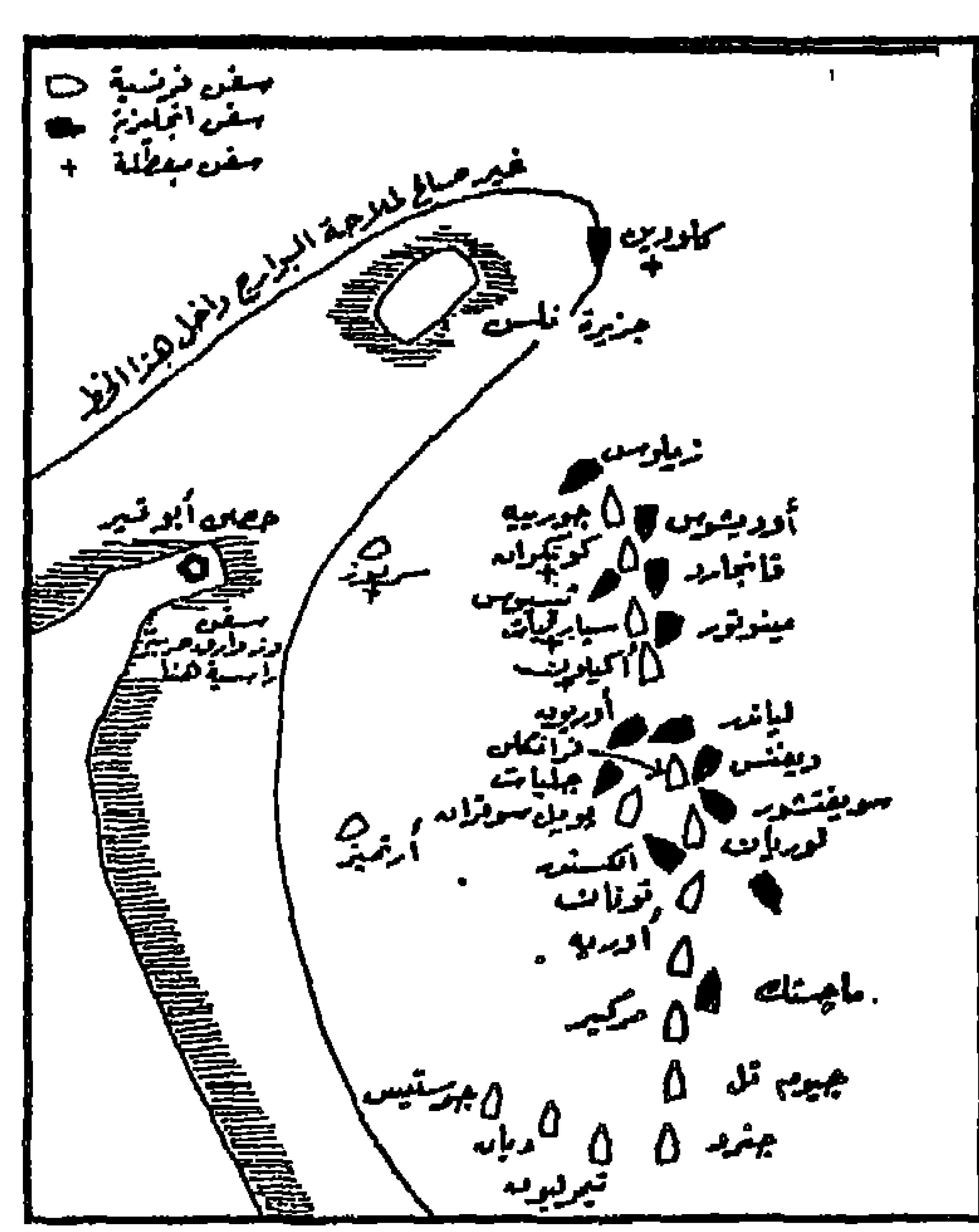

الأدميرال الفرنسى برويز

سار نابليون نحو القاهرة ، كانت مصر فى ذلك الوقت تحت سلطان الدولة العثمانية اسمًا ، لكن أمورها كان يدبرها المماليك . وكانت الزعامة بين هؤلاء قد انتهت إلى إبراهيم بك ومراد بك ، ومع ما كان بين الرجلين وأتباعهما من الخصومة ، فقد خرجت قوات المماليك متحدة لمواجهة الفرنسيين .. إلا أن الفرنسيين

تمكنوا من هزيمة المماليك بعد معركة حامية عرفت بأسم "معركة الأهـــرام" .. لقد وقف نابليون بين جنوده ووجه إليهم كلمة رفع فيها من معنوياتهم، قال فيها : "أيها الجنود ، إن أعين فرنسا تنظر إليكم من أعالى هذه "الأهرام" ! لقد صـب الفرنسيون نيران مدفعيتهم الحديثة على المماليك ، فقتل من المماليك نحو ألفـــي رجل بينما لم يقتل من الفرنسيين سوى 40 قتيلاً !!

ولـــم يكـــد "هوراشيو نيلسون" يتأكد من وجود أسطول الحملة الفرنسية في مياه "أبو قير" بعد ظهيرة يوم أول أغسطس 1798م حتى قرر الهجوم عليه فـــي التو واللحظـــة.

كـــان الأسطول الفرنسي بقيادة الأدميرال برويـــز (Admiral Brueys) في وضع سيئ ، وموقع لا يتلاءم مع صالحه في معركة بحرية ضد الأســطول الإنجليزي الذي بدأ في الانقضاض عليه فجأة في معركة تصادميــــة تراكميـــة بحرية . كانت بوارج الأسطول الفرنسي الثلاث عشرة تقف والقطـــع الحربيـــة الفرنسية الأخرى تقف بجوار المياه الضحلة لميناء أبي قير ووراءهـــا مباشـــرة شاطئ البحر مما كان يحـــد من قدرة الأسطول الفرنســـي علـــى القيـــام بـــأي مناورات يستلزمها القتال البحري . وكان وجود قطـــع الأســـطول الفرنسي بيـــن الشـــاطئ وبيـــن الأسطول الإنجليزي المهاجم يمنع استخدام مدفعية السواحل والســـفن الحربية الفرنسية فـــــي مؤخـــرة الأسطول الفرنسي مـــن إطـــلاق نيرانها والاشتراك في الضـــــرب ضد سفن الأسطول الإنجلـــيزي، كما كان كثير من بحارة الأسطول الفرنسي قد نزلوا من السفن إلـــى الشاطئ لأسباب متعددة. وكــــان الأدميرال برويز قد وضـــع فـــي اعتباره أن وجود ميـــاه ضحلـــة



على أجناب الأسطول الفرنسي تجعل من المستحيل مهاجمة أجنـاب الأسـطول الفرنسي ، ولكن السفن الإنجليزية استطاعت بـالفعل الوصـول إلـى أجنـاب الأسطول الفرنسي، واستطاعت بالتالي تطويقه من الأجناب وبذلك كان الأسطول الفرنسي محاصرا بالفعل بين الأسطول الإنجليزي وبين الشاطئ المصرى.

وكانت معركة أبي قير البحرية معركة تصادمية طاحنة حيث كانت قطـع أسطول نيلسون تتبادل النيران مع قطع أسطول الأدميرال برويز الفرنسـي دون أي هوادة ، ولم يبق من الأسطول الفرنسي سوى فرقاطتين في صبـاح اليـوم التالي للمعركة استطاعتا الهروب من مكان المعركة بقيادة الأدميرال الفرنسـي فللينيف ولم ينشط الإنجليز في مطاردته إذا كانت خسائرهم جسيمة أيضا، وكـان معظم الأسطول الفرنسي قد دُمِّر فلا بأس من هروب فرقاطتين .

ولقـد قتل من بحارة الأسطول الفرنسي الأدميرال برويز نفسـه وثلاثـة ربابنة لثلاث سفن فرنسية و ١٧٠٠ بحار وجرح 1500 آخرون.

وبلغت خسائر الأسطول الإنجليزي 218 قتيلا و٦٧٧ جريحـا ، وأصيـب الأدميرال نفسه بجرح خطير في جبينه فوق عينه التي كان قد فقدها في معركـة سابقة.

وبالقضاء على الحملة الفرنسية ، انقطع المدد عن نابليون ، وزادت حاجتـه إلى المال، فثقل عبء الضرائب على الشعب مع الدقة فى جمعها وأفرط الحكـم فى إعدام المجرمين أو المذنبين وتصرف الجنود الفرنسيون بشكل علنى فـى أمور كان الشعب المصرى يرفضها ، مثل شرب الخمر، والظهور علانية مـع النساء.

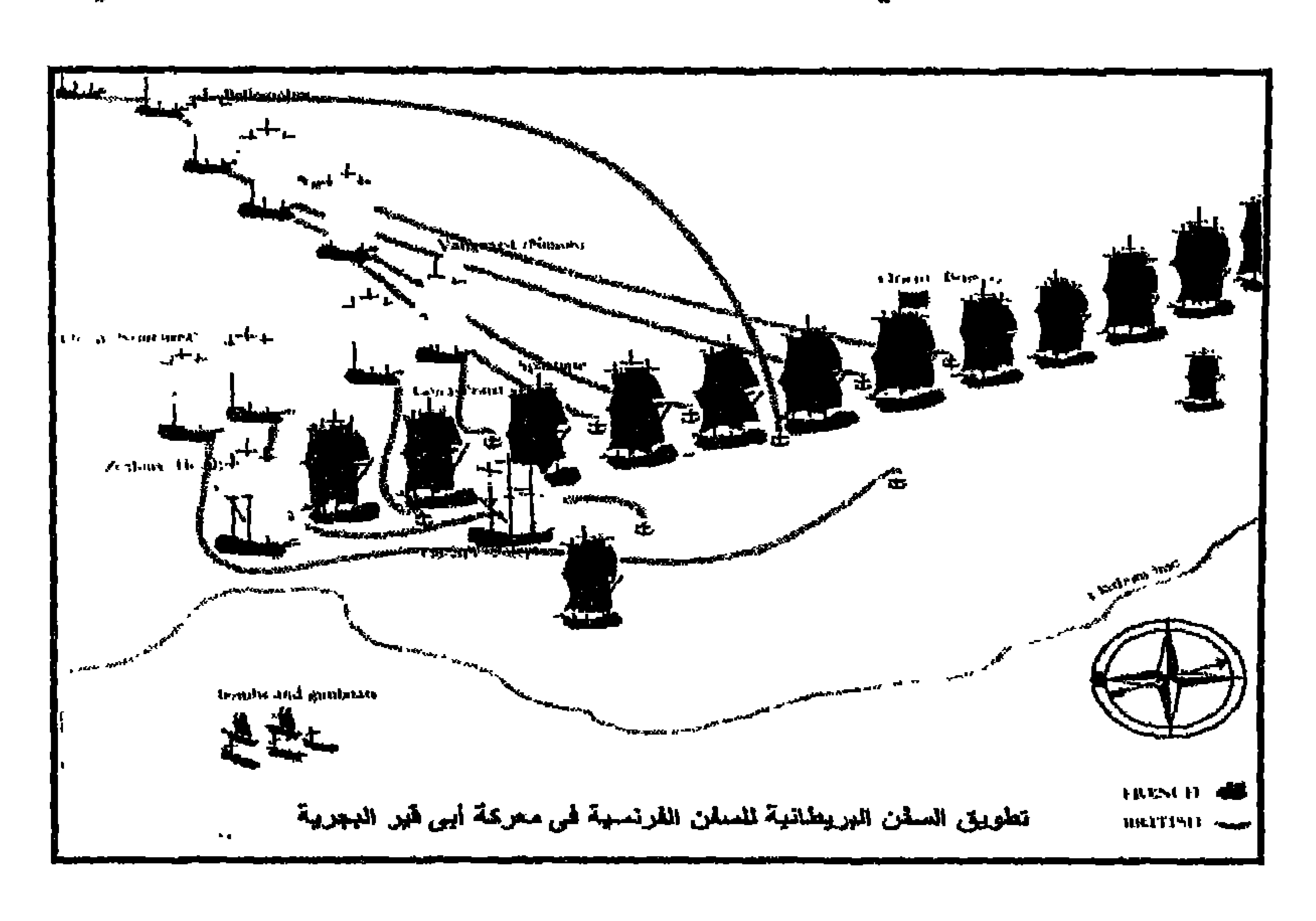
فانفجرت ثورة عارمة فى أكتوبر عام 1798 .. وقمع الفرنسـيون الثـورة بعنف، وضربوا الأزهر بالمدافع ، ودخلوه بالخيول ..

لـم يجد نابليون بداً من أن يهاجم سوريا ويحتلها ، فخرج بجيشه من مصر فى فبراير عام 1799 ، فاحتل العريش ويافا ، وقتل من حاميتـها نحـو ألفـى جندى كانوا قد استسلموا له بعد أن أمنهم .. وأرسل فرقة من جيشه إلى القدس ، ثم وصل إلى عكا وبدأ فى محاصرتها فى 19 مارس 1799 ، وكـان حاكمـها أحمد باشا الجزار قد حصنها وأحكم تحصينها ، كما كـانت قطـع الأسـطول

البريطانى تحميها بقيادة "سدنى سميث" وبعد محاولات يائسة ، فشل نابليون فى احتلال المدينة ، وكانت الملاريا قد انتشرت بين جنوده .. فرفع الحصار عنها فى 20 مايو 1799 ، وعاد أدراجه إلى القاهرة.

وبعد فترة قصيرة غادر نابليون مصر إلى فرنسا تاركا الجنرال "كليبر" على رأس الإدارة ، إلا أنه اغتيل على يد سليمان الحلبى .. فتأخر مشروع انسحاب فرنسا من مصر.. وخلفه "مينو" الذى واجه فى النهاية الحملة البريطانية البحرية والجيش العثمانى ، فسلم البلاد ، وانسحب فى صيف عام 1801.

لا ريب أن معركة "أبو قير البحرية" قد أكدت سيطرة الإنجليز البحرية في المحيط الأطلسي وفي البحر المتوسط ، وكانت لهذه المعركة نتائج خطيرة في مجريات السياسة العالمية في الحلقة الأخيرة من القرن الثامن عشر وفي مطلع



تطويق السفن البريطانية للسفن الفرنسية فى معركة أبى قير البحرية

القرن التاسع عشر، إذ غدت بريطانيا قوة بحرية لا تنازع بعد أن تفوقت على البحرية الإسبانية ، ثم البحرية الهولندية ، ثم البحرية الفرنسية ، مما كان يجعل دولة مثل تركيا تخضع للضغوط البريطانية وتطلب من بريطانيا الحماية البحرية ضد المطامع الروسية مما أتاح لبريطانيا أن ترث أهم أملاك ومستعمرات الرجل المريض عند اقتسام أقطار الإمبراطورية العثمانية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.


هوراشيو نيلسون

اكتسب "نيلسون" شهرة كضابط نشيط ذى عقلية حربية فذة .. وخلال معركة "سانت فينسانت" في 14 فبراير عام 1797 ، توصل بمبادرته فى اختراق القتال إلى الاستيلاء على أربع سفن من عدوه .. وتقديراً لإحرازه هذا النصر ، عُيِّن فارساً ورُقى إلى رتبة أميرال .. جرح فى عدة مناوشات .. وفقد عينا وذراعاً .. إلا أن قواه العقلية بقيت كاملة .. ولما قضى على نابليون فى مصر حظى بلقب "نيلسون بارون النيل" ..

لقد استطاع "هوراشيو نيلسون" أن يؤكد تفوقه ومهارته في قيادة المعارك البحرية ، وتفوُّق ومهارة جنود وضباط البحرية الإنجليزية وقوة وتفوق سفن وتسليح سفن الأسطول البريطاني عندما تغلب في عام 1805م على أكبر حشد من سفن الأسطول الفرنسي والأسطول الإسباني في معركة ترافلجار(الطرف الأغر) (Trafalgar) .

كانت السفينة الملكية "النصر" حاملة علم نيلسون فى ترافلجار من نوع سفن القتال المألوفة التى كانت تشكل الأسطول الحربى الرئيسى . كانت هذه السفن البطيئة الصعبة القيادة كناية عن منصات مدفعية عائمة تحمل ما بين 60- 120 مدفعاً تطلق النار جانبا . وكانت قادرة على البقاء فى عرض البحر سنوات عديدة .. بنيت "النصر" فى شاتهام ودشنت سنة 1765 .. كان طولها 69.5 متراً ولها سارية تبلغ 15.5 متراً .. ولها أكثر من 100 مدفع، أكبرها اثنان من عيار 68 رطلاً ، وثلاثة من عيار 32 رطلاً وثمانية وعشرون من عيار 24 رطلاً ..

ولقد حال انتصار الأسطول الإنجليزي في معركة ترافلجار دون غزو الجزر البريطانية ذاتها ، إذ كان نابليون قد أحرز انتصارات كبيرة داخل أوربا وحشد قواته البرية الكبيرة في بولونيا منتظرا فرصة مواتية لتجميع قوة بحرية فرنسية تستطيع أن تدمر الأسطول الإنجليزي وتمكنه من العبور إلى الجزر البريطانية.

وتحالف نابليون مع الملك الإسباني فيليب لتحقيق هذا الهدف وتحقيق التعاون بين الأسطول الإسباني والأسطول الفرنسي ، بحيث تتجمع سفن الأسطولين غربي الأنديز ثم تدخل مجتمعة إلى المحيط الأطلسي لتهاجم الأسطول الإنجليزي وتدمره في القنال الإنجليزي.

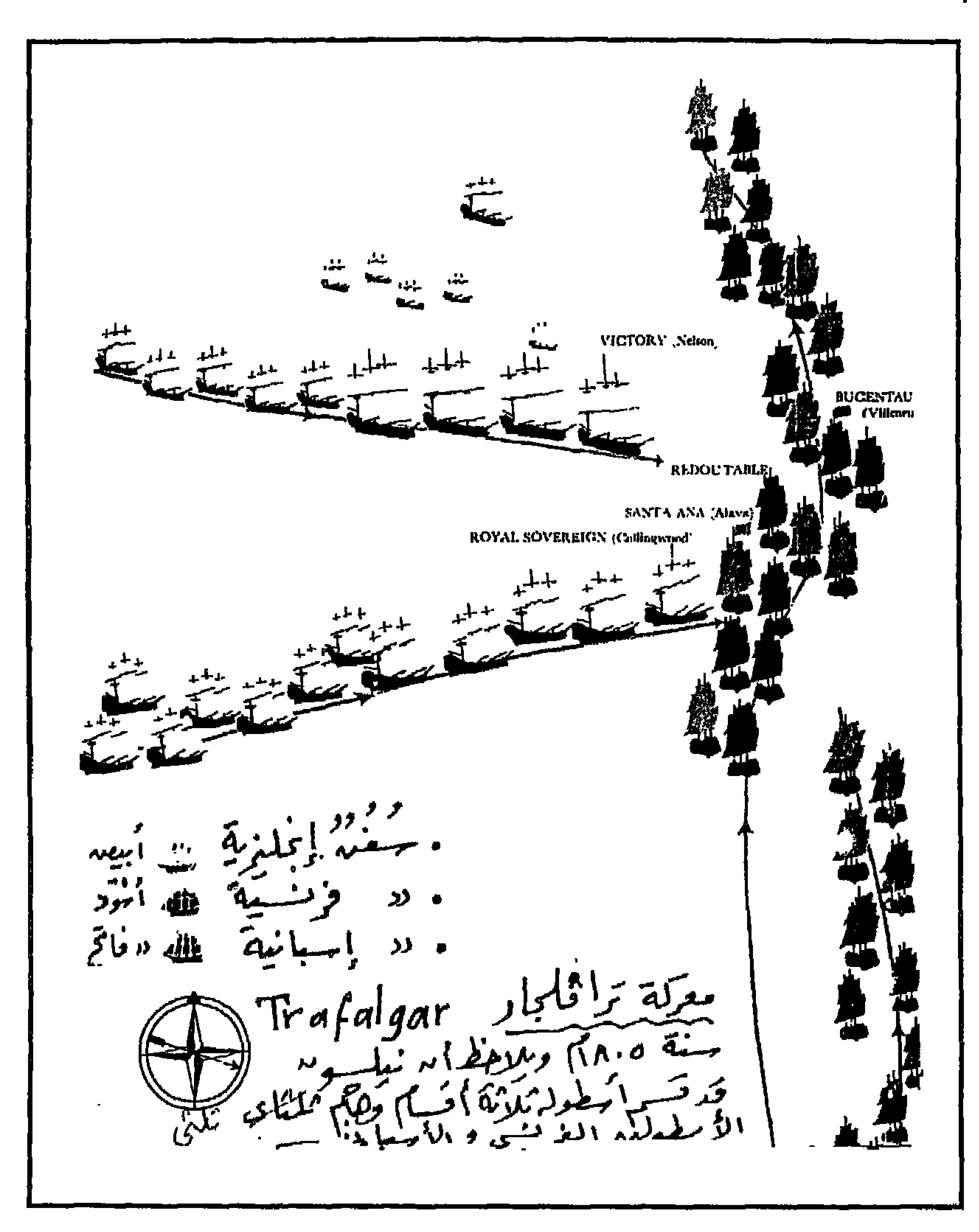
وعلى الرغم من أن نيلسون كان يراقب نشاط الأسطول الفرنسي في ميناء طولون، إلا أن قائد الأسطول الفرنسي فيللينيف **(Villeneuve)** استطاع المرور بسلام من طولون إلى غربي الأنديز لتنضم إليه سفن الأسطول الإسباني، إلا أن نيلسون استطاع أن يهزم الأسطولين في معركة ترافلجار يوم 11 أكتوبر سنة 1805م وتم أسر قائد الأسطول الفرنسي فيللينيف.

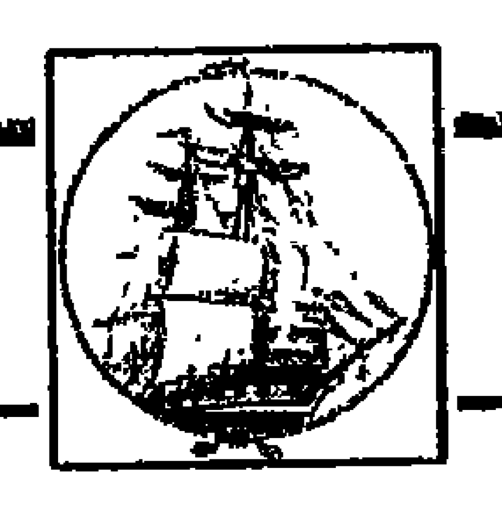
وقد أصيب نيلسون بجرح قاتل في هذه المعركة التي كانت آخر معاركه البحرية الكبرى التي قادها بمهارة محققا نصرا كبيرا للبحرية البريطانية ليحول مرة أخرى دون محاولة غزو فرنسا لأراضي الجزر البريطانية ، ومحققا سيطرة بحرية بريطانية طيلة قرن كامل بعد هذه المعركة ، معركة ترافلجار (الطرف الأغر) سنة 1805م.

أحاطت وفـــاة القائـــد الفـــذ "نيلسون" انتصار ترافلجار بغمامة سوداء !!

أصيب فى كتفه برصاصة قناص ، فأنزل إلى أسفل السفينة ، حيث توفـــى بعد ذلك بأربع ساعات ..

كـــان يؤمن بالانضباط الصارم ، كما كان قائداً موهوباً .. وقد أظهر فـــى غمرة المعركة شجاعة واقتـــداراً فائقين ، فضلاً عن عبقرية تكتيكية وبصـــيرة ثاقبة.





معركة نفارين البحرية 1827 م

توطـدت علاقة محمد على مع الحكومة العثمانية ، بعـد أن لبّـى دعـوة السلطان العثمانى فى إخماد العديد من الحركات التى تعادى الدولة العثمانيـة .. وضحى بكثير من الجنود والأموال المصرية فى سبيل تحقيق ذلك .. وقد برهن بذلك على إخلاصه وولائه للسلطان ..

تفـرغ محمد على بعد ذلك للقيام بإصلاحاته الواسعة ، وبينما هو منـهمك فى أعماله إذ جاءته دعوة السلطان "محمود الثانى" إلى المساعدة فى حرب جديدة طاحنة ، وهى إخضاع الثورة فى بلاد اليونان التى كانت تابعة للدولة العثمانية.. صدع محمد على بالأمر ، ورأى أن اشتراكه فى تلك الحرب فرصـة لإظـهار مقدرة جيوشه البرية والبحرية ، فضلاً عن أن السلطان قد أصدر لـه فرمانـا (أمراً) بتوليته جزيرة إقريطش (كريت).

قامت الثورة فى الجزيرة سنة 1821 ، ولما عهد السلطان إلى محمد علـى بإخمادها ، أرسل سنة 1823 حملة مصرية مؤلفة من خمسة آلاف جندى تحـت قيادة ابنه إبراهيم باشا ، فهزم الثوار شـر هزيمة.

ولمـا عجـز الأتراك عن إخضاع الثوار فى بلاد المورة (جنوب اليونان)، أصدر السلطان أمراً بتولية محمد على عليها ، وأمره لتجريد جيش لقمع الفتنـة هناك .. ووجـد محمد على فى ذلك فرصة لتوسيع ملكه وإعلان شأنه .. كمـا أن استنجاد الدولة العثمانية بالجيش المصرى فى مثل هذه الظروف يزيـد مـن شهرته الحربية .. ولذا بادر محمد على بإرسال حملة مؤلفة من سبعة عشر ألف جندى بقيادة إبراهيم باشا ، وبحراسة الأسطول المصرى الضخم المكون من 51 سفينة حربية ، 46 سفينة نقل ، فتمكنت الحملة من النزول فى بلاد المورة فـى فبراير عام 1825 ، وفى بضعة أشهر أخضعت كل بلاد المورة ، وكانت موقعة (تريبولتزا) من أهم المواقع الحربية.

وفى أثناء ذلك كان الجيش التركى يحاصر مدينة (ميسـولونجى) شـمالاً ،

ولما استعصت عليه ، طلب المعونة من إبراهيم باشا ، فسار إليها وحاصرهـــا براً وبحراً ، حتى سلمت بعد أن كبدها خسائر فادحة.

موقف الدول الأوربية :

ثارت بلاد المورة مرة ثانية ، فأخضعها إبراهيم باشا بشدة ، ولما بلغ ذلــك دول أوربا (روسيا وانجلترا وفرنسا) اتفقوا على التدخل بين تركيا واليونان على أساس استقلال اليونان الداخلى ، مع بقاء السيادة التركية عليها (معاهدة لنــدن 6 يوليو سنة 1827) ..

كانت أوربا كلها متعاطفة مع اليونان ضد الحكم العثمانى ، حتى إن الشاعر الإنجليزى الشهير لورد بايرون(Lord Bayron) ، انضم إلى صفوف الثــوار اليونانيين فى منطقة سيفالونيا ، وقتل فى مدينة ميسولونجى عام 1824 ..

وعلى الرغم من وجود تعارض وصراعات بين حكومات الدول الأوربيـــة تجاه الدولة العثمانية نتيجة لأطماع كل دولة على حدة ، إذ كانت روسيا ترغــب فى إضعاف تركيا ، بينما كانت بريطانيا ترغب فى أن تظل تركيا قوية حتــى لا تصل روسيا إلي المياه الدافئة فى البحر الأبيض المتوســـط .. وكــان لفرنســا وألمانيا أطماع كبيرة بالنسبة لهذا الصراع .. إلا أن كل أوربـــا كــانت تريــد مساعدة اليونان فى أن تستقل عن الدولة العثمانية التى تساهلت فــــى اســتقلال ولايات تابعة لها حول نهر الدانوب فى وسط أوربا ، ولكنـــها تمســكت ببقــاء اليونان ولاية تركية ، وذلك لشدة قرب اليونان من تركيـــا ، ونظــراً لموقعــها المتميز فى البحر الأبيض المتوسط ..

وكانت تركيا تحتفظ بأسطول كبير عند شبه جزيرة المورة (جنوب اليونان) في البحر المتوسط وكانت سفن مصرية بقيادة إبراهيم باشا تشارك في هذه القوة البحرية العثمانية وهو الشأن الذي أقلق الدول الأوربية.

كـــان هذا الأسطول العثماني في البحر المتوسط جنوبي شبه جزيرة المورة يقوم بإمـــداد القوات التركية في بلاد اليونان وبلاد البلقان بما تحتاج إليـــه مـــن جنود ومـــؤن وذخائر. وبطبيعة الحال كانت السفن العثمانية والمصرية تدخـــل إلى المياه الإقليمية لليونان في البحر المتوسط وتخـــرج منـــها لـــهذا الغــرض الحيوي.

ولإضعاف القوات التركية والمصرية في اليونان ، ولمؤازرة الثوار في اليونان اتفق ساسة الدول الأوربية على ضرورة الحد من نشاط التموين البحري للقوات التركية والمصرية في حرب المورة ، وحشدت لذلك الغرض قوات بحرية مشتركة بريطانية وفرنسية وروسية بعد زيارة قام بها الدوق ولنجتون (Duke Wellington) إلى روسيا سنة 1826م.



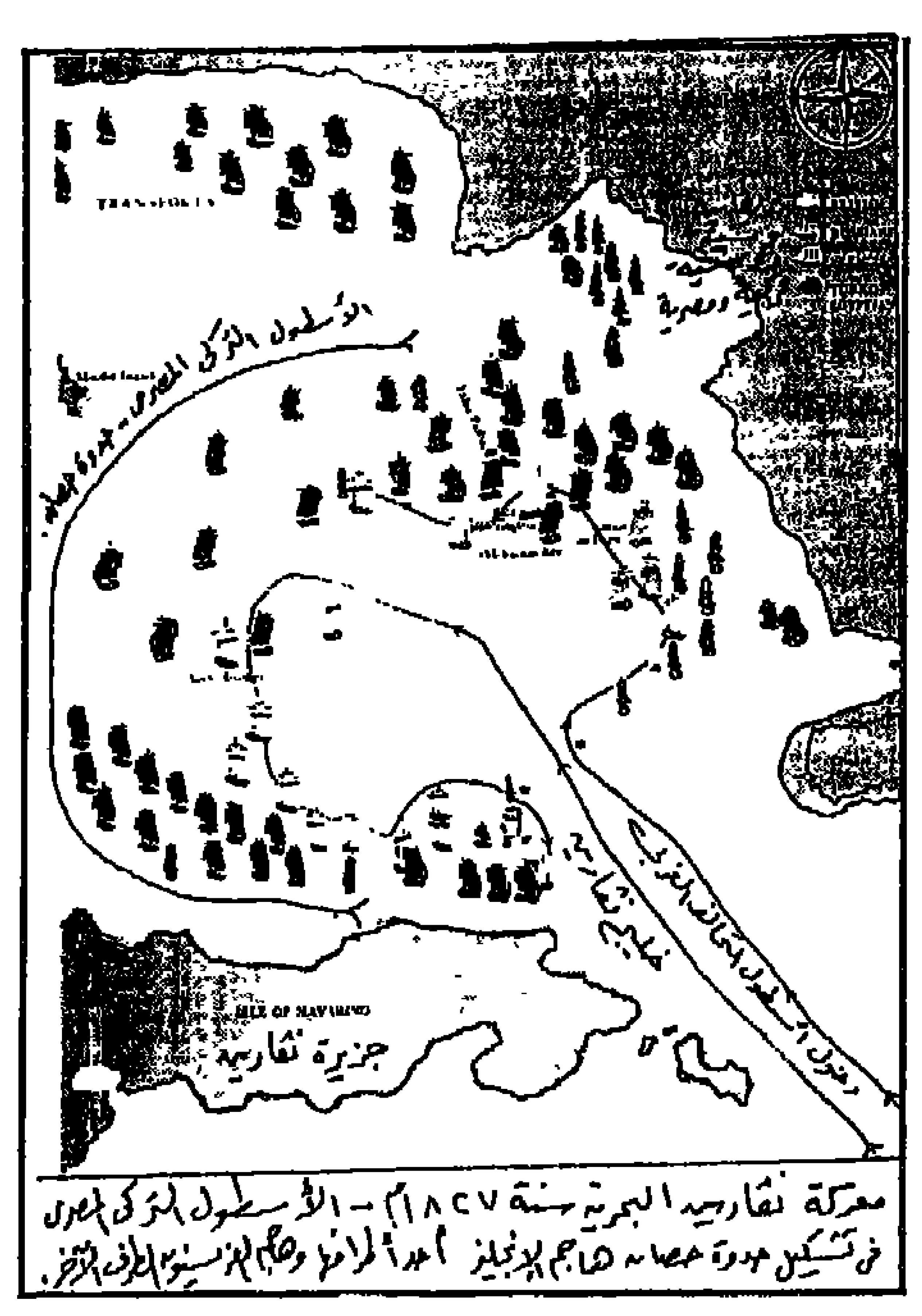
أدميرال إدوارد كادرنجتون
(1770-1851)

واتفقت هذه الدول فيما بينها على ضرورة ضرب الأسطولين العثمانى والمصرى، بحجة منع الأضرار التى لحقت بمتاجرهم فى الشرق ، وإجابة لدعوة الثوار ، وتلبية لنداء الإنسانية !!

وبالفعل طلب قائد أساطيل التحالف الأوربي الأدميرال سير إدوارد كادرنجتون (Admiral Sir Edward Cadrington) من إبراهيم باشا عدم إدخال رجال أو أسلحة أو سفن إلى المياه الإقليمية لليونان في البحر المتوسط وأن يوقف القتال طبقا لمعاهدة لندن 1827. وكان من المستحيل أن يوافق إبراهيم باشا على هذا المطلب الغريب الذي كان معناه قطع طريق الإمدادات الرئيسي عن القوات التركية والمصرية التي تحارب الثوار في بلاد المورة وفي وسط أوربا وأدرك سوء نية الحلفاء .. وقال لهم : " إنكم تطلبون منى وقف حركات القتال ، وفى نفس الوقت تتركون الطرف الآخر يفعل ما يريد.. وليس هذا من الإنصاف !!"

وكان تحت قيادة السير كادرنجتون 12 سفينة بريطانية و7 سفن فرنسية و8 سفن روسية ، أما سفن الأسطولين المصرى والتركى فكانت نحو 62 سفينة.. إلا أن البوارج الأوربية كانت تفوقها فى حسن القيادة والإعداد. ونظرا إلى أن إبراهيم باشا كان قائدا للقوات البرية فقد تخلى عن قيادة الأسطول لقائد بحري

تركي هو طاهر باشا وانضم إبراهيم باشا إلى القوات البرية التركية المصريـــة داخل بلاد اليونان.



معركة نفارين البحرية سنة ١٨٢٧م - الأسطول التركي المصري في تشكيل حدوة حصان هاجم الإنجليز أحد أطرافه وهاجم الفرنسيون الطرف الآخر.

وكـــان وضـــع الأســطول التركي في خليج نفارين وضعـــا سيئا يشبه إلى حــد كبير وضـــع الأسطول الفرنسي في معركة أبي قير البحرية وهـــو وضـــع شـــبه محاصر إذ يهاجمه أسطول كبـــير من البحر بينما يرتكز الأســـطول التركي على البر مما يحــد مـــن قدرته على المناورة فـــي البحـــر فضلا عن تفوق أسطول الــــدول الغربية في التسليح والتدريب على القتال البحري . وكان الأســطول التركي قد اتخـــذ تشكيلا يشبه "حـــدوة الحصان" ثلاثة صفوف على شكل نصف دائرة ، وكانت السفن الحربية الإنجليزية هى طليعة ســـفن أســطول التحـــالف الغربي فهاجمت طرف "حدوة الحصان" الموازي لســـاحل جزيـــرة كورفـــو ، وهاجمت السفن الفرنسية الطرف الآخر من "حدوة الحصان" ، وبقيـــت الســـفن الروسية في الخلف وبذلك اضطلع الإنجليز والفرنسيون بالدور الرئيســـي فـــي الهجوم على الأسطول التركي الذي دُمر بعد قتال شديد ولم ينج مـــن ســـفنه إلا فرقاطة واحدة وخمس عشرة سفينة صغيرة تمكنت من الإفلات مـــن حصـــار أسطول دول التحالف الغربي بينما غرق في خليج نفارين أربع عشرة فرقاطـــة وقتل ما لا يقل عن أربعة آلاف بحار تركي ومصري . بينما قتـــل 182 مـــن بحارة أسطول التحالف الغربي وجرح 489 جريحا . وكان عـــدد القتلـــى مـــن الإنجليز 80 بحارا والجرحى منهم 206 بحارا مما يدل على أن الإنجلـــيز قـــد اضطلعوا بالجانب الأكبر من القتال في معركة نفارين البحرية.

ولا شك أن معركة نفارين البحرية سنة 1827م بعد معركة ليبـــانتو ســنة 1571م قد قضت تماما علـــى آمـــال تركيا ومصر في بناء قـــوة بحريـــة تستطيع التغلب على أساطيل الـــدول الأوربية ، فكفت تركيا ومصر عـــن محاولة بناء أسطول بحري لتحقيـــق هذا الهدف، وأصبحت تركيـــا تعتمـــد اعتمادا فعليا على حمايـــة الأســـطول البريطاني لمصالحها تركيا في البحـــر المتوسط وفــــي مضيـــق البوســـفور والدردنيل

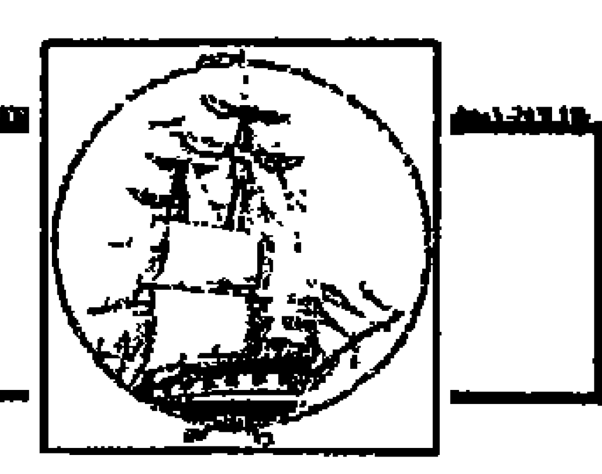
قائد مؤخرة الأسطول الكونت هيديه

في مقابل ثمن باهظ هو خضوع تركيا لنفوذ بريطانيا بحريا ، وألمانيا وفرنسـيا بريا مما كان لـــه أثره في انهيار تركيا عندما استطاعت الدول الغربية اقتســـام ولاياتها.

وماذا كان موقف محمد على ؟

أرادت تركيا أن تقاوم مطالب الحلفاء ، وتطلب منهم تعويضا عما أصـــاب سفنها، إلا أن إعلان روسيا الحرب عليها أجبرها على الموافقة (معاهدة أدرنـــة سبتمبر عام 1829) . أما محمد على ، فإنه لما علم أن فرنسا أرسلت إلى بـــلاد اليونان جيشا مؤلفا من 18 ألف جندى لإجلاء المصريين ، رأى أنه من الحكمـــة عدم التقيد بسياسة تركيا ، خصوصا بعدما هدد الأدميرال كادرنجتون بضـــرب الإسكندرية .. فعقد اتفاقا مع الحلفاء فى أغسطس عام 1828 ، يقضى بجـــلاء المصريين عن اليونان ، وأن يتعهد بإعادة الأسرى اليونانيين ، وأن يـــرد إليـــه الإنجليز الأسرى المصريين والسفن التى استولوا عليها أثناء القتال.

لقـــد جردت مصر لتلك الحملة جيشا مؤلفا من نحو 42 ألفا من الجنـــود ، لم يرجع منهم سوى 12 ألفا ، بالإضافة إلى تدمير الأسطول المصرى !!



حرب الأفيون (1839)م

حروب كثيرة ألفنا سماعها ، وعلمنا نتائجها ..

الحرب العالمية الأولى .. الحرب العالمية الثانية .. الحرب الكورية .. الحرب الصينية اليابانية .. وغيرها كثير ..

أما حرب الأفيون فإن الكثير يجهلونها ..

أين وقعت ؟ وما أسبابها ؟ وماذا كانت نتائجها ؟!

وقبل أن نجيب عن تلك الأسئلة .. نورد أيضا السؤال التالى :

هل يمكن أن تستخدم المدافع والبوارج البحرية والجيوش الجرارة لتأمين انتشار الأفيون المخدر والمدمر بين أفراد أمة من الأمم ؟ !

وهل يمكن أن نتصور بلدًا يقوم بحظر استيراد المخدرات نظرًا لخطورتها الجسدية والعقلية على المواطنين ، فتقوم الدول المصدرة لتلك السموم بمعاقبة هذا البلد وشن الحرب عليه ليفتح أبوابه أمام تلك السموم تحت شعار حرية التجارة والسوق ؟!

وللإجابة عن كل هذه التساؤلات لابد من الرجوع إلى الوراء .. إلى ما قبل تلك الحرب ..

يقول الأستاذ / جمال الكاشف فى كتابه "مقتطفات من تاريخ العالم" :

فشل " لورد مكارثى " أن يكون سفيرًا لبلاده فى الصين .. اكتشف بعد وصوله إلى بكين أن البروتوكول الصينى يحتم عليه إذا تشرّف بمقابلة الأمبراطور "شين لانج" أن يركع على ركبتيه ، وأن يؤدى تحية "الكاو تاو" ، فينحنى ثلاث مرات .. واعتبر ذلك ذلاً ومهانة لإنسانيته وشخصيته كسفير لبريطانيا .. لم يلتزم بتقاليد البلاط الصينى ، والتقى فيما بعد بالإمبراطور لقاءً غير رسمى .. ولكن هذه المقابلة كانت بداية سيئة لعلاقات فاترة ، فلم تحقق بعثته الدبلوماسية أى إنجاز !!

كان ذلك عام 1793 .. وبعـد نحو عشرين سنة جاءت بعثة ثانيـة علـى رأسها سفير إنجليزى آخر كان أسوأ حظا من سابقه .. أحضـر معـه الـهدايا والثياب الفاخرة للأمبراطور "شيا سينج" ابن الأمبراطور السابق "شين لانـج" ، ولكنه بطريقة ما تركها وراءه .. وبالتالى لم يتمكن من الظهور فـى حفـلات البلاط أبـدًا ، ولم يقابل الإمبراطور !!

غضب الإمبراطور من ذلك ، وأعرب عن أملـه فى ألا يتكـرر إرسـال بعثات دبلوماسية إنجليزية إلى الصين .. ورسـم هذا الاتجـاه الإمـبراطورى السامى شعور كل الصينيين نحو التمثيل الدبلوماسى العـالمى بوجـه عـام ، متصورين أن كل الدول على نفس المستوى البريطانى من العجرفـة والكبرياء، وعـدم الاكتراث بالتقاليد الصينية المحلية .. وكان يسود الصيـن ، وقتـذاك ، شعور بأنها ليست محتاجة لأى من دول العالم .. ولـذا ظلت اتصالات الصيـن بالعالم الخارجى نادرة لعـدة قـرون، فيمـا عـدا علاقـات تجاريـة مـع الإمبراطورية الرومانية .. أى أن الصين فى تلك العصور كانت مغلقة أبوابها ، متقوقعة فى أرضها.

وفـى عصر المغامرين التجار الأوربيين ، أبحـر البرتغاليون ودخلوا مياه الصين ، ومن بعدهم الهولنديون ، فالفرنسيون ، ثم الإنجليز والروس ..

لـم يرحب الصينيون كثيراً بالغربيين .. وفرضوا عليهم كل أنواع القيـود التجارية ، غير أن تهافت تجار الغرب على موارد الصين الكثيرة جعلتهم يقبلون كل هذه القيود .. وفى نفس الوقت لم يتمكـن الصينيون من مقاومـة الفـرص التجارية الجديدة .. وعلى مـر السنين نمـت التجارة نمـوا ملحوظـا بيـن الإمبراطورية الشرقية العظيمة ودول الغرب ..

صـدرت الصين الشاى والحرير والأوانى الخزفيـة .. واسـتوردت فـى المقابل المنسوجات الصوفية ، والمعادن ، والأفيـون !!

وعلى الرغـم من أن الأفيـون كان محرماً فى الصين بحكم القـانون .. إلا أن القانون لم يستطع الوقوف فى وجه الأفيـون !!

ولـم يسفر التشـدد فى تطبيق القانون إلا عن زيادة الكميات المهربة مـن الأفيـون عبر البحر ، وتحايل المهربون فى البحث عن طرق عديدة وملتويـة

لإغراق السوق الصينية بالأفيـون ..

وفى مقابل ذلك انتشرت الرشوة بين الموظفين الصينييـن حتـى يغضـوا الطرف عن تهريب الأفيون ..

لقـد لعبت بريطانيا دوراً مخجلاً فى هذه التجارة القـذرة عن طريق شركة الهنـد الشرقية ، ذلك أن دخل بريطانيا من تجارة الأفيون مثـل فـى إحـدى المراحل أكثر من نصف دخلها من إجمالى تجارتها مع الصين !!

كان مينـاء "كانتون" هو المدخل الرئيسى للأفيون إلـى الصيـن ، وكـان معظمـه يأتى من الهنـد بطرق مختلفة ، معظمه يأتى إلى الساحل مع الملاحين على السفن الغربية ، وكانت هناك سفن شراعية سريعة متخصصة فـى هـذه التجارة.

حـدث هذا فيما بين عامى 1839 ،1842 حينمـا أعلنـت الرأسـمالية الأوربية ، وعلى رأسها بريطانيا ، حربها على الصين .. لقـد كـانت حـرب الأفيـون نموذجاً صارخ الدلالة على الوحشية التى مارسها الأوربيـون وهـم يطبقون سياستهم الليبرالية على الصعيد العالمى .. وكان من نتيجتها إجبـار الصين بالقوة على فتح أبوابها على الرأسمالية العالمية وإفقارها ، وتحويلها مـن بلد كان يتمتع دوماً بميزان تجارى فائض ، إلى بلد فقير يستورد معظم حاجياتـه من الخارج ، ويعانى من عجز ضخم فى معاملاته الخارجية ، ويكابـد معظـم سكانه من إدمان الأفيون !!

كانت بريطانيا قد فرضت سيطرتها على شبه القارة الهندية عام 1818 مـن خلال النشاط الأخطبوطى لشركة الهند الشرقية البريطانية ، فقد كانت بريطانيـا بحاجة مستمرة إلى أسواق متنامية لتصريف فائض إنتاجها.

ومنـذ أن احتلت بريطانيا الهنـد ، تحولت الهنـد إلى سـوق لتصريـف البضائع البريطانية ، فانهارت الحرف الصناعية الهندية ، وأجبرت الهنـد على التحول لزراعـة القطن والجوت وبـذور الزيتون لتشحن إلى بريطانيا.

استمـرت بريطانيا فى استيراد الشاى والحرير الخام والعقاقير من الصيـن بكميات كبيرة وبخاصة الشاى .. إلا أن المشكلة التى واجهت بريطانيا هـى أن السوق الصينى مازال مغلقا أمام البضائع البريطانية .. ولهـذا كـان المـيزان

التجارى بين الصين وبريطانيا لصالح الصين .. الأمـــر الذى استدعى استمرار تدفق الأموال البريطانية إلى الصين .. مما أزعج الحكومة البريطانية ، ولذلـــك ظل فتح أسواق الصين أمام المنتج البريطانى هدفاً عزيـــزاً لـــدى بريطانيـــا .. فمـــاذا فعلت ؟

اكتشفت بريطانيا أن أفضل وسيلة لذلك هى الأفيون ..

نعـــم الأفيـــون .. وذلك من خلال فتح أسواق رابحة لـــــه داخـــل الســـوق الصينية.

كـــان الأفيـــون الذى تنتجـــه الهند يستهلك منه كميات محـــــــدودة داخـــل الصين من قبل كبار ملاك الأراضى ، ورجال البلاط والأغنيـــــاء .. وكـــانت الحكومة الصينية تسمح فقط باستيراده كعقار طبـــى ..

بـــدأت شركة الهنـــد الشرقية البريطانية فى إغراق الصين بالأفيون ، وذلك بتهريب وإفراغ شحنات منه قبالة السواحل الصينية ، على أن يقوم المـــــهربون بنقله وبيعه بالداخل .. وأجبرت الشركة الهنود على زراعة الخشخاش بغـــرض التوسع فى إغراق السوق الصينية به.

وبـــدأ الأفيـــون يتدفق عن طريق التهريب إلى الصين ، مما حقق أرباحـــاً طائلة للتجار البريطانيين وللحكومة البريطانية فى نفس الوقت .

وهكـــذا استطاعت شركة الهنـــد الشرقية ، بواســـطة الأفيـــون ، أن تحـــل مشكلة الميزان التجارى مع الصين ليصبح لصالح بريطانيا .. وأصبـــــح ثمـــن الشاى والحرير الذى تشتريه بريطانيا من الصين يدفـــع من خـــلال صـــادرات الهنـــد من الأفيـــون للصيـــن !!

لقـــد تزايـــد تصدير الأفيون الهنـــدى إلى الصين ، وازداد معـــــه عـــــدد المدمنين ، ولم يعـــد الإدمـــان مقصوراً على الأغنياء ورجال البـــلاط والإدارة وإنمـــا اتسعت دائرته لتشمل قطاعات كبيرة من عامة الشعب ، الأمـــر الـــذى ترتب عليه نتائج مدمرة للصين وشعبها .. لقد حل الدمـــار النفسى والجســـمانى والعقلى بالشعب الصينى ، وكذا بالجنود ورجال الإدارة الحكوميـــــة ، وعمـــت الفوضى والرشوة كبـــار المسئولين ورجال البلاط ..

تنبهـــت الحكومة الصينية لهـــذا الحظر الذى دهم شبابها وجيشها ، فقـــامت

بحظر تجارة الأفيـون .. وأمـر الأمبراطور الصينى بـالقبض علـى تجـار الأفيـون، وإغلاق متاجرهم ، وحرق ما فيها .. وقد لاقى هذا الإجراء ارتياحـاً عاماً وقبولاً من الشعب ..

ولكـن ماذا كان موقف بريطانيا ؟

لقـد رأت بريطانيا فى قرار الإمـبراطور الصينـى ضربـة مؤلمـة لاقتصادها. فأعلنت الحرب على الصين ، بحجة أن ذلك يعد انتهاكا صريحاً من الصين لحرية التجارة !! كانت الحرب غير متكافئة .. وكان لابـد للصين مـن أن تنهزم أمام تفوق الأسطول البحرى البريطانى والتسليح المتطور لجنـوده ..

استمرت هـذه الحرب من عام 1839 إلى عام 1842 ، وأغـار الأسطول البريطانى على عـدد من الموانئ الصينية فى سلسلة هجمات وحشية ، وقتـل عـدة آلاف من الصينيين فى ميناء "كانتون" .. وفى عام 1841 قدمت بريطانيـا صيغة معاهدة سلام ، لكن الأمبراطور الصينى رفض اعتمادهـا ، واسـتؤنفت العمليات الحربية البحرية من جديد .. وهددت البحرية البريطانية مدينة "نانكينج" عام 1842. وانتهى الأمر بتوقيع معاهدة سلام تحمل اسم تلك المدينة.

كانت الاتفاقية تفرض شروطا مجحفة على الصين ، تنبـئ عـن تشـفى الغالب من المغلوب .. وكانت بمثابة قائمة عقوبات تسلم بمقتضاها الصين إلـى بريطانيا "هونج كونج" على مصب نهر "كانتون" ، وأن تفتـح الصين موانيـها الكبرى أمام التجارة الخارجية .. كما فرضت بريطانيا على الصيـن عقوبـات مالية كبيرة، وألزمتها بدفع 6 ملايين دولار فضى تعويضا عن الأفيون الذى تـم حرقه ومصادرته ، 12 مليون دولار تعويضا لنفقات الحرب ، 3 ملاييـن دولار مقابل ديون مستحقة للتجار البريطانيين لدى التجار الصينيين !!

وهكـذا كان الأفيون سببا فى هزيمة أكبر دول العالم ، و تنحيها عن أجزاء من أراضيها ..

ومـاذا بعـد ؟

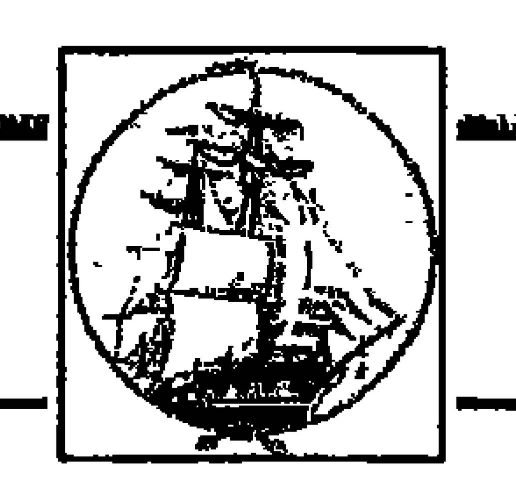
وعلى الرغـم من أن الصين أحنت رأسها أمام القوة البريطانية الغاشـمة ، إلا أن لظى النضال للتخلص من الغاصب ظل كامنا تحت الرمـاد .. وظلـت الصين على تحفظها وانطوائها .. ساعدها على ذلك قدرتها على الاكتفاء الذات،

وإيمان شعبها بأن الأجانب أكثر إزعاجاً للوطن ، وأنهم فئة غير مرغوب فيها.. ولكــن ماذا يفعل الصينيون وقد رسخت أقدام المستعمر فوق أراضى موانيهم ؟ التى كانت آمنـــة ؟!

ثبــت الإنجليز أقدامهم فى كانتون ، وهى مدينة كبيرة تقع عنــد مصب نهر عرضه مائة ميل هناك جنوب الصين .. وعلى هذا المصب تقـــع المســتعمرة البريطانية الجديدة "هونج كونج" ، والتى تتميز بســرعة نموهــا وتطويرهــا ، وبحركة ملاحية كثيفة وسريعة بينها وبين كانتون .. بعضها مشروع والبعــض الآخر غير ذلك .. وكثير من هذه التجارة غير المشروعة كانت تتســرب إلــى المدن الصينية تحت جنح الظلام .. ولم يكن غريباً أن تشرق الشــمس صباحــاً فيرى الناس جثث القتلى والغرقى من البيض والصفر تطفو مع مياه المــــد .. كثرت الحوادث .. وكان منها تلك الحادثة التى وقعت عام 1856 ، حيث وجــد فى مياه كانتون السفينة البريطانية "أرو" مشدودة إلـــى مرســاة تحمــل العلــم البريطانى ، تقدم منها زورقان صينيان وأجبراها على اللجوء إلــى الشــاطئ ، وقام البحارة الصينيون بإنزال العلم البريطانى من فوقها ، واقتادوا بحارتها إلــى السجن .. وكان عــددهم 12 بحاراً .. ممــا أثــار بريطانيا ، واعتبرت ذلــك بمثابة صــب للزيت على النــار ، واشتعلت حرب جديدة !!

لــم تفلح جهود الوساطة لتسوية هذا النزاع ، فــأبْحر ثانيــا أمــير البحــر البريطانى "سير ميشيل سيمون" إلى "فاتشان كريك" ودمــر الأسطول الصينـــى هناك .. ومرة أخرى وقعوا معاهــدة ســلام قصيرة العمر فى 26 يونيو عـــام 1858 ، أنهاها الصينيون بفتح النار على السفن التى طافت تكرم الدبلوماســـى البريطانى "سير فردريك بروس" فى نهر "بيهــو" .. ولمــا أدركت بريطانيا ان الأمر يحتاج إلى قوات أكثر قوة من ذى قبل ، أشركت معها قــوات فرنســية ، ويــدأ الهجوم الأول ضد قلاع "تاكو" عنــد مصب نهر "بيهــو" ..

كان القتال ضاريا ، وانتهى باستيلاء الحليفين على قلاع "تاكــو" وواصــل الحليفان السير باتجاه العاصمة "بكين" ، واشتبكا مع القوات الصينيــة مرتيــن : مرة فى "تشانج كياوان" وأخرى فى "بالىتشبان" .. وكان لابــد من أن تنـــهزم القوات الصينية فى المعركتين !! ودخلت القوات البريطانية والفرنسية شـــوارع العاصمة فى 13 أكتوبر عام 1860.



معركة تسوشيما (1905م)

معركة تسوشيما (1905م) (Tsushima) هى أول معركة بحرية كبرى في القرن العشرين بين الأسطول الياباني والأسطول الروسي من أجل الحصول على السيطرة البحرية في المحيط الهادي (Pacific Ocean).

وقد نشب هذا الصدام البحري بين اليابان وروسيا بعد تطورات الأحداث في الحرب اليابانية الصينية وبعد أن تم إبرام معاهدة صلح بين اليابان والصين ، وأصبح ميناء بورت آرثر (Port Arthur) بموجب هذه المعاهدة تحت سيطرة اليابان. واعترضت على البند الخاص بوقوع ميناء بورت آرثر تحت السيطرة اليابانية روسيا وفرنسا وألمانيا واضطرت اليابان إلى إعلان عدم سيطرتها على ذلك الميناء المهم بالنسبة للملاحة الدولية في المحيط الهادي وخصوصا بالنسبة للنشاط البحري الروسي.

وإزاء تراجع اليابان عن التمسك بالسيطرة على ميناء بورت آرثر ازدادت مطامع روسيا في ذلك الميناء وفي غيره من الموانى المطلة على المحيط الهادي. وعمدت روسيا على الفور إلى إنشاء خط حديدي يمر من منشوريا إلى ميناء نيوتشوانج (Niu-Chwang) ثم يصل إلى ميناء بورت آرثر لتجعل للأسطول الروسي قواعد على شاطئ القارة الأسيوية تطل على المحيط الهادي . وإزاء هذا النشاط والطمع الروسي المكشوف عمدت اليابان في صمت إلى بناء أسطولها البحرى والاهتمام بكافة شئونه.

وعندما أتمت اليابان بناء أسطولها البحرى القوي هجمت فجأة على السفن الروسية التي كانت راسية في ميناء بورت آرثر كما لو كان ميناء روسيا لا نزاع عليه ، وتم تدمير السفن الروسية تدميرا تاما ، وكان ذلك هو الاحتجاج الياباني الأول على سيطرة روسيا على ذلك الميناء.

ولم يكن الأسطول الروسي في المحيط الهادي كله موجودا في ميناء بورت آرثر بل كان معظم سفن هذا الأسطول في مواني أخرى.

وإزاء هـذا الاعتداء اليابـــاني المباغت صدرت الأوامر الروســية إلــى الأدمــيرال ماكــهاروف (Makharoff) للتـــصـدي للأسطول الياباني الذي دمـر سـفنا روسية في ميناء بورت آرثــر دون إنذار ودون إعلان للحرب . وحـاول الأدمـيرال الروسـي ماكـهاروف



الأدميرال هيماكورو توجو

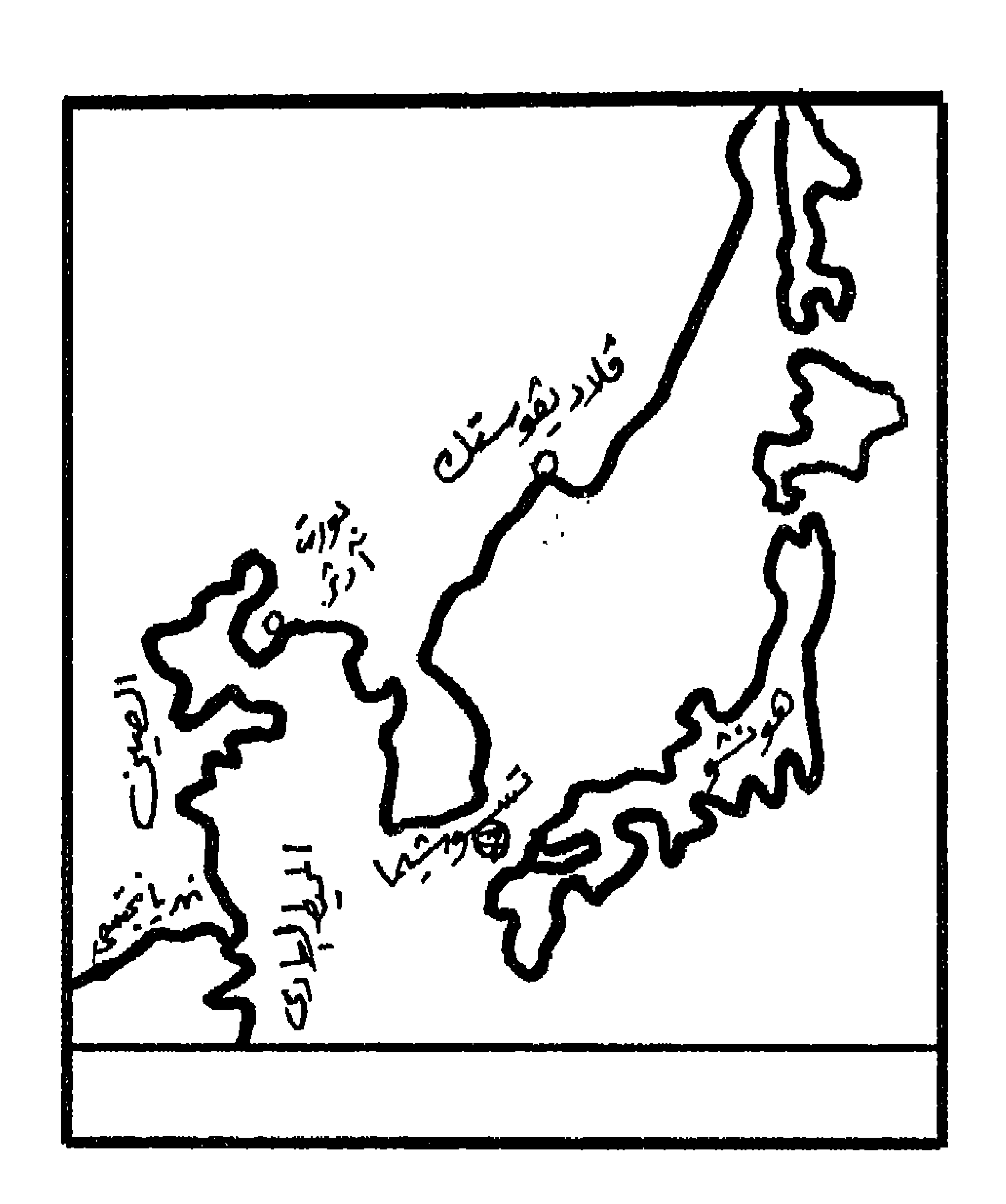
الدخول في معركة مع الأسطول الياباني بقيادة الأدميرال هيمـاكورو توجــو (Heimachoro Togo) يوم 13 أبريل سنة 1904م فاصطدمت سفينة قيـادة الأسطول الروسي وهو يشق طريقه إلى المعركة ببقايا بركان خامد تحت سـطح الماء وغرقت سفينة القيادة بالأسطول الروسي ، واضطرت بقية السـفن إلــى الانسحاب إلى قواعدها وعدم دخول معركة لتأديب الأسطول اليابـاني ، وبقــى الثأر الروسي ضد تحـدى اليابان للبحرية الروسية معلقا دون أن يتحقق.

وبمضي الوقت ، وعندما تحددت معالم الصراع بين اليابان وروسـيا مـن أجل السيطرة على الملاحة في المحيط الهادي عَمـدَ اليابانيون على الفور إلــى احتلال المرتفعات التي تتحكم في ميناء بورت آرثر ، وتمكنت اليابان مـن أن تضرب من البر أي قطع بحرية روسية تدخل ميناء بورت آرثـر ممـا جعـل الصراع بين روسيا واليابان متأججا يستلزم الحسم. وازداد بمرور الوقت حـرج موقف الروس وأخذوا يعملون على استرداد هيبتهم في المحيط الهادي واسترداد سيطرتهم على موانيه . وازداد تبعًا لذلك تصميم الحكومة الروسية على تحطيـم البحرية اليابانية وكانت الحكومة الروسية تصر على أن يكون لها وجود بحـري قوي في المحيط الهادي يعادل وجود وسيطرة قوات بريطانيـا فـي المحيـط الأطلسي والبحر المتوسط.

ولكـن نجاح اليابان في تحطيم السفن البحرية الروسية في المحيط الـهادي كان يحتاج من الحكومة الروسية وقتا طويلا لإعـداد أسـطول بحـري قـوي للبطش بالأسطول الياباني ، واضطرت روسيا إلى سحب أسطولها الموجود فـي

بحر البلطيق وتحريكه حول نصف الكرة الأرضية لتحقيق التوازن الروسي ضد الأسطول الياباني.

وأسند القيصر الروسي نيقولا الثاني (1868 – 1917) (Nicholas II) قيادة الأسطول الروسي إلى الأدميرال روجد يستفينسكي (Admiral Rejdestvensky) الذي يبلغ من العمر ستة وخمسين عاما ، وكان رغم عصبيته يحظى بسجل لا بأس به في الحروب البحرية ضد الأتراك . وكان الأسطول الروسي الذي تولى قيادته جيد التسليح.



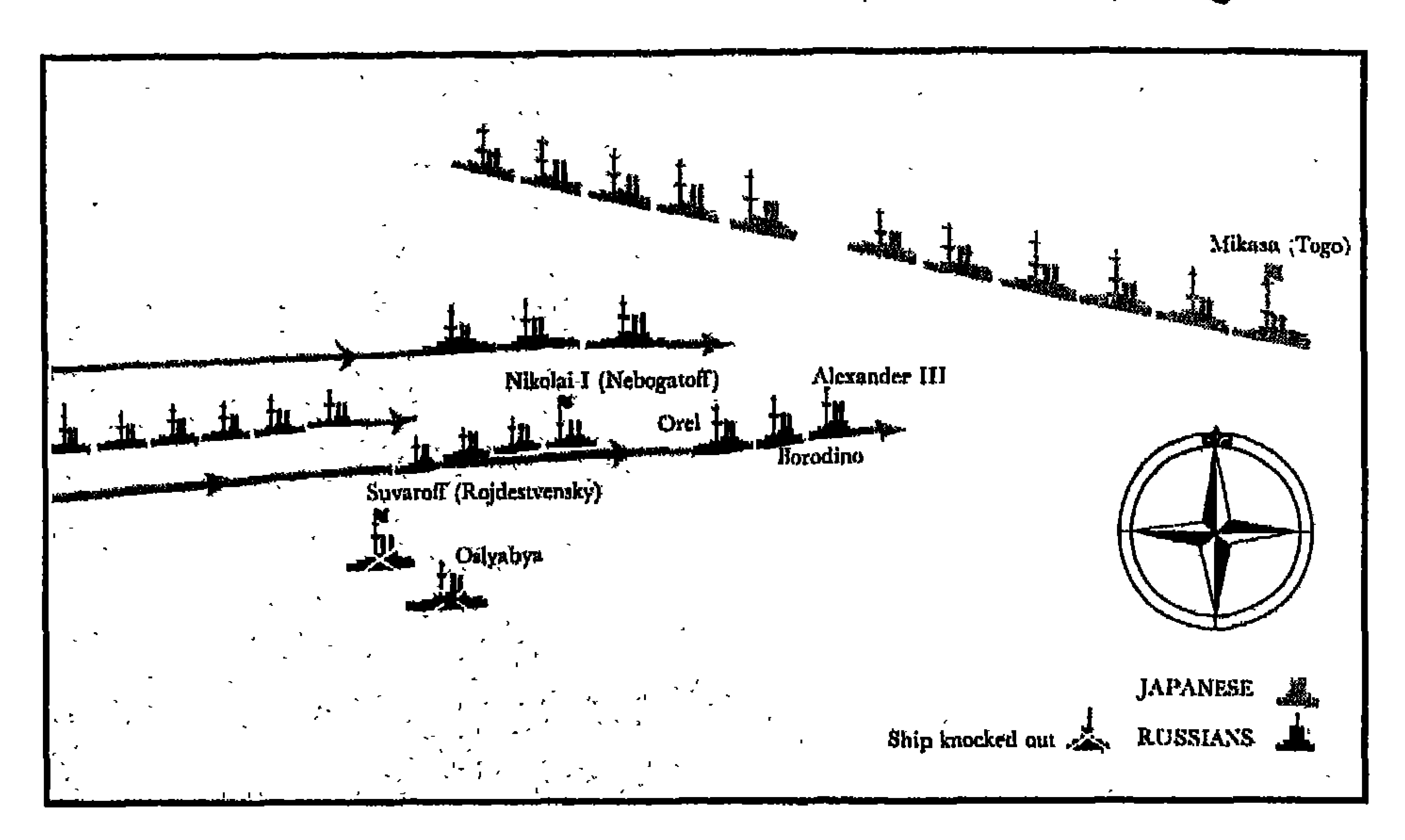
وقام القيصر الروسي نيقولا الثاني باستعراض الأسطول يوم 9 أكتوبر سنة 1904 ، وبعد أسبوع تحرك الأدميرال روجد يستفينسكي بأسطوله نحو اليابان لتأديب الأسطول الياباني الذي دمر الأسطول الروسي في الشرق وسدد بالفعل ضربة ساحقة لهيبة الدولة الروسية جعلت سلاحها البحري أضحوكة لكل أساطيل الدول البحرية الكبرى. ولقد كانت هذه الحساسية الروسية موجودة بالفعل وراء كواليس الحكومة الروسية التي كانت تشعر بالحرج الشديد بين الدول وأمام الشعب الروسي.

تحرك الأسطول الروسى من بحر البلطيق إلى المحيط الأطلسى إلى البحر المتوسط ، وعند مضيق جبل طارق انقسم الأسطول قسمين ليدخل القسم الأول منه إلى البحر المتوسط عند جبل طارق ليمر من قناة السويس ، واتجه القسم الآخر من الأسطول الروسي إلى غرب إفريقيا ليمر حول رأس الرجاء الصالح، ربما لإخفاء حجم الأسطول عن عيون الرقباء ، والتقى القسمان في أول يناير سنة 1905 عند مدغشقر، حيث وصلت إلى الأسطول الروسي أنباء عن احتلال اليابانيين لميناء بورت آرثر احتلالا تاما . مما كان له تأثيره السيئ على الأسطول الروسي الذي كان قد خطط أن يتخذ من هذا الميناء قاعدة رئيسية لعملياته البحرية ، وها هو ذا قد سقط في قبضة أعداء روسيا ، وأصبح كل هدف الأسطول الروسي المتحرك إلى المحيط الهادي هو أن يتمكن من أن يشق طريقه رغم أنف الأدميرال توجو والأسطول الياباني لكي يصل إلى ميناء فيلاديفوستك ليتخذ منه قاعدة لعملياته البحرية بدلا من ميناء بورت آرثر ، ولكن هل ينجح الأسطول الروسي في ذلك ؟

انقضى شهر أبريل وشهر مايو سنة 1905 في ضيافة البحرية الفرنسية في الهند الصينية . ويوم 14 مايو كان الأسطول الروسي قد بدأ المرحلة الأخيرة في اقترابه من ميدان المعركة التصادمية مع الأسطول الياباني .

واخترق الأسطول الروسي قنال باشي (Bashee Channel) بين فورموزا والفليبين متجها نحو شانجهاي (Shanghai) ، وهنا بقيت السفن الإدارية رابضة عند مصب نهر يانج تسي (Yang Tse) ، وواصلت السفن المحاربة من المدمرات والفرقاطات والطرادات طريقها متجهة صوب مضيق تسوشيما (Tsushima) الذي يفصل بين الجزيرة التي يطلق عليها هذا الاسم وبين جزيرة هونشيو (Honshiu) وهى واحدة من أهم الجزر اليابانية. وكان الجو عاصفا والأمطار تنهمر وهو ما اعتبره الروس ستارة تمويه طبيعية لمصلحة الأسطول الروسي المتحرك نحو هدفه وكل أمله أن يفلت من رقابة الأسطول الياباني ، ومن الاشتباك معه قبل الوصول إلى قاعدته المنشودة في ميناء فيلاديفوستك الروسي.

وخلال الشهور التي استغرقها الأسطول الروسي للوصول إلـــى المحيــط الهادي كان الأدميرال توجو قد أجاد تدريب وحدات الأسطول اليابـــاني علــى الاحتمالات الممكنة للمعركة مع الأسطول الروسي المجهد بسبب رحلته الطويلة، وكانت الانتصارات البحرية اليابانية السابقة ضد البحرية الروسية ترفع معنويات البحارة اليابانيين فضلا عن الشجاعة والجرأة والإقدام التي يتمتع بها اليابـــانيون عموما مع حبهم الشديد لوطنهم : اليابان.



وكـــان الأدميرال توجو قد تعايش مع بحارة الأسطول اليابـــاني معايشـــة طويلة وذاقوا تحت قيادته طعم الانتصار على الروس ، وكان يعرف كما يعرف ضباطه وجنوده كل شبر من مياه المحيط الهادي بالقرب من الجزر اليابانيـــة ، كما كان يعرفون التغيرات المحتملة لحالة الطقس واتجاه وشدة الرياح على مدار أيام السنة، وكانت لديه كل الأسباب لكي يشعر ويشعر جنـــوده بالثقـــة التامـــة بالنصر على الروس. كما كانت المعلومات عن تفاصيل قواته البحريـــة غـــير متاحة لمخابرات أي دولة غربية لأكثر من سبب قويّ . وكل ما كانت تعرفـــه المخابرات البحرية للدول الكبرى هو أن فرصة الأسطول الروسي في النصـــر على الأسطول الياباني إنما هى فرصة معدومة تماما.

ونظرا لأن الأدميرال توجو كان يتوقع اضطرار الأسطول الروسي إلى المرور من مضيق تسوشيما فلقد اتخذ توجو خليج ماسامبو (Masampo) في كوريا الجنوبية قاعدة للأسطول الياباني ، ومن هذا الخليج قام توجو بهجومه على الأسطول الروسي.

وفي يوم 26 مايو سنة 1905 بدأت السحب تنقشع ، وبدأت السماء تقلع عن المطر ، وبدأت الرياح تهدأ ، وبدأت الشمس تسطع . وكان الأسطول الروسي قد قرر قادته أن يدخل خليج تسوشيما أثناء النهار لتفادي صعوبات الملاحة الليلية لمثل هذا الأسطول الكبير.

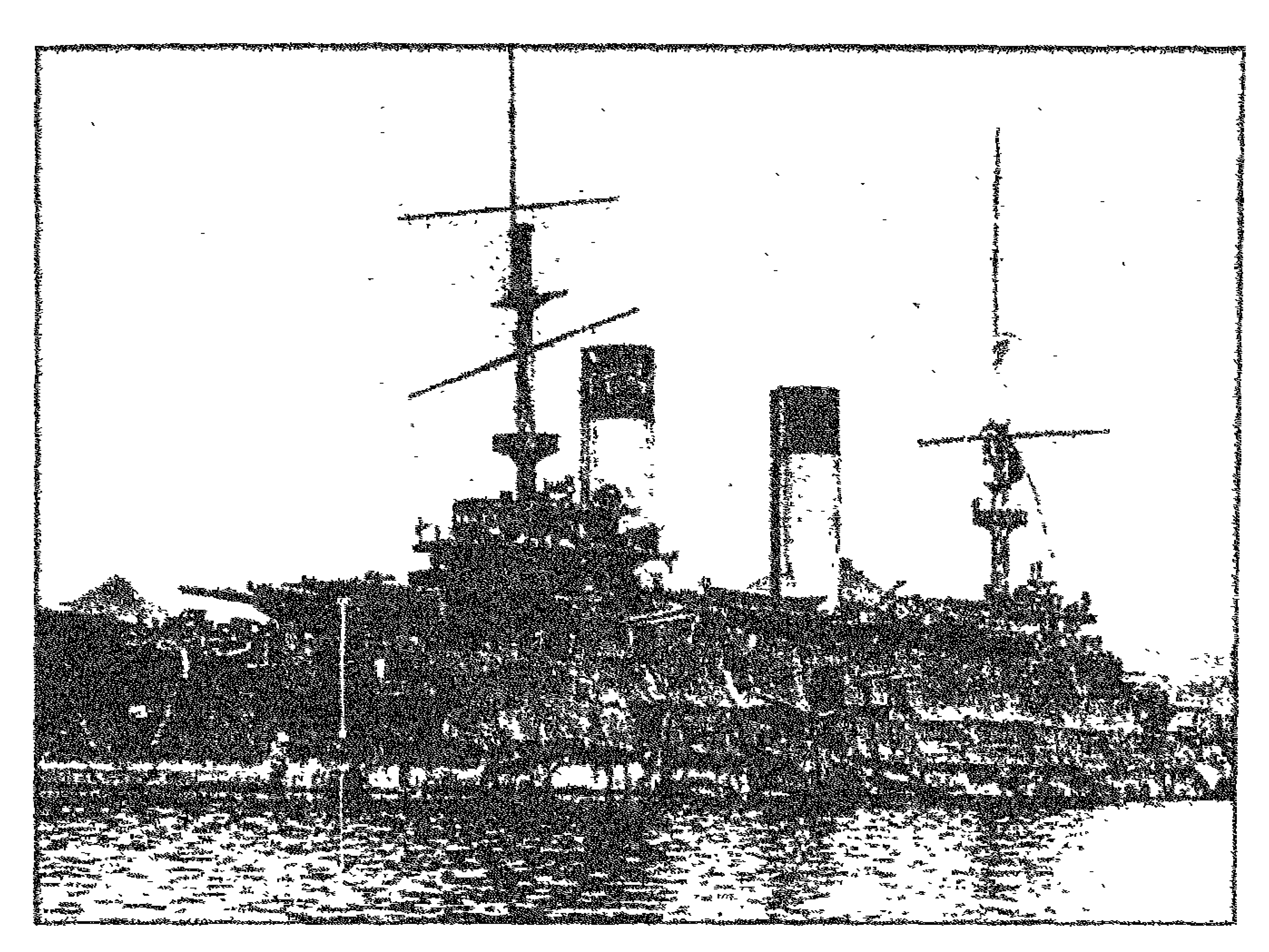
وكانت خطة الأدميرال توجو بالغة البساطة ، وتتلخص في أن قطع الأسطول الياباني الأسرع من قطع الأسطول الروسي والأقوى تسليحا ستقطع طريق تقدم سفن الأسطول الروسي من الأمام ومن الخلف بمجرد أن يؤكد استطلاع البحرية اليابانية وصول الأسطول الروسي بالقرب من مدخل خليج تسوشيما ، مع تركيز الضرب على سفن الشئون الإدارية للأسطول الروسي في بداية المعركة.

وعند الساعة العاشرة من صباح يوم السابع والعشرين من شهر مايو 1905 كان الأسطولان قد اتخذ كل منهما تشكيل المعركة المحتومة بينهما. وفي الساعة الحادية عشرة والنصف كانت سفن يابانية تسير في خط مواز لخط سير السفن الروسية ، وقام ضابط روسي على متن السفينة أوريل (Orel) بفتح النار فصاح القائد الروسي فيه قائلا : لا يجب الإسراف في استهلاك الذخيرة . وأوقفت السفينة الروسية أوريل إطلاق النار.

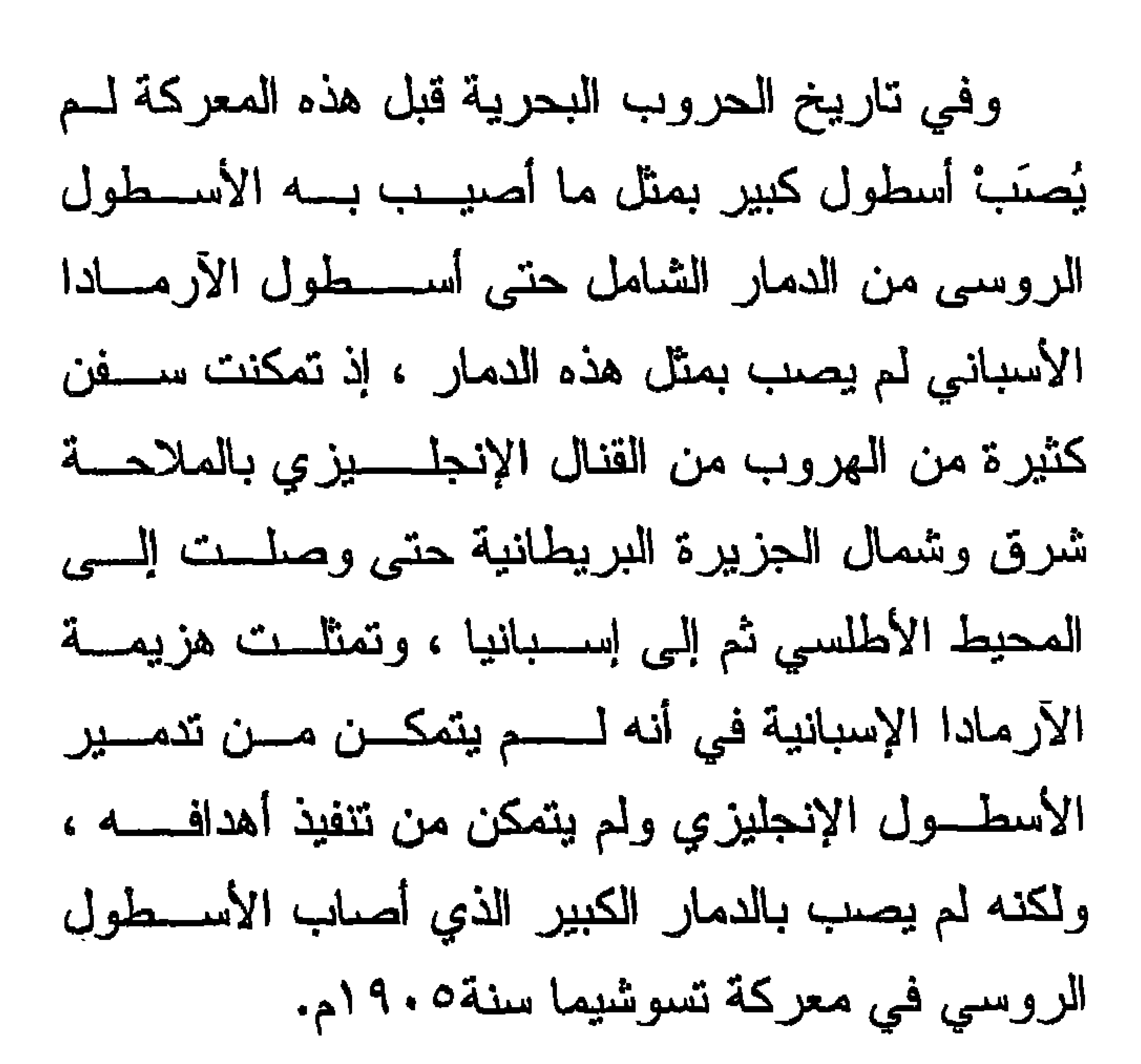
وظن الروس أن اليابانيين قد أحجموا عن الاشتباك معهم ، وأصدر قائد الأسطول الروسى أوامر إلى اتخاذ الطريق نحو ميناء فيلاديفوستك بالانحراف بمقدار °23 درجة نحو الشرق ، واستمر الأسطول الروسي في تقدمه يحدوه الأمل في بلوغ فيلاديفوستك سالما.

وكانت السفن الحربية اليابانية في حقيقة الأمر تتخـذ أنسب المواقع لها قبل أن تبدأ في الاشتباك مع الأسطول الروسي . واستطاعت السفن الحربية اليابانيـة بسرعتها الفائقة أن تقطع خطوط تقدم السفن الروسية ثم تعيد التقاطع معها أكـثر من مرة ، وبعد عشرين دقيقة من إطلاق نيران السفن اليابانيـة علـى السـفن الروسية كان كثير من الدمار قد لحق بالسفن الروسية . وكانت قذائـف السـفن الروسية تُطلَقُ بطريقة عشوائية بينما كانت القذائف اليابانية تصيب أهدافها بدقـة بالغـة.

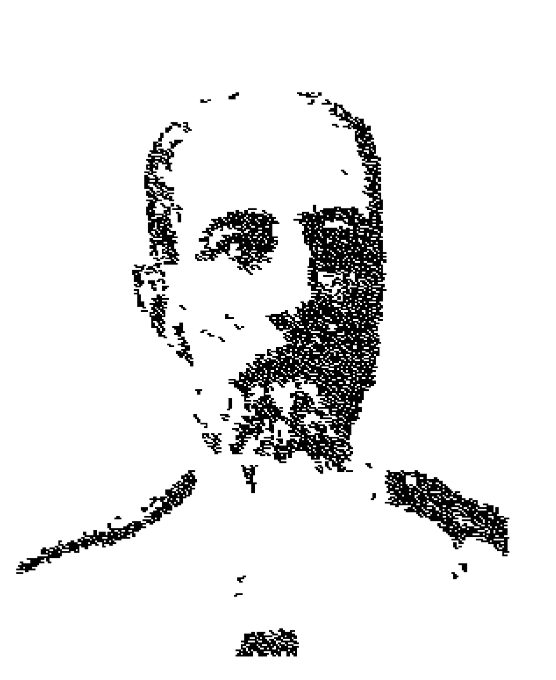
وفـي الساعة الخامسة بعد ظهر يوم 27 مايو سنة 1905 كان الأسـطول الروسي قد اختل توازنه ، واضطرب نظامه ، وتحول القتال البحري إلى مذبحة لسفن الأسطول الروسي ، وأصيبت سفينة القيادة به في مؤخرتها وبدأت تحترق، وأصيب قائد الأسطول الروسي مرتين وقتل ضابط العلم ، وكـان آخـر أمـر أصدره قائد الأسطول الروسي إلى قـادة السـفن هـو: "إلـى نيبوجاتـوف (Nebogatoff) في محاولة للوصول بعد ذلك إلى فيلاديفوستك، ولكن تلاشـت آمال كل قادة السفن الروسية في الوصول إلى مكان آخر بعد تسوشـيما. كـان جزء من الأسطول الياباني بقيادة توجو نفسه يهاجم الأسطول الروسي من جهـة الشرق ، وكانت الطرادات اليابانية تهاجم من الجنـوب ، ودخلـت المدمـرات والفرقاطات اليابانية أيضا وهى آمنة من أي مقاومة لكي تشترك فـي ضـرب الأسطول الروسي . وانتقل قائد الأسطول الروسي مع عدد قليل من ضباطه إلى سفينة أخرى غير سفينة القيادة الغارقة ، ولكنها أصيبت في الحال إصابة مباشرة واستسلمت للأسر في ظهيرة يوم 27 مايو 1905 لتتجلي معركة خليج تسوشيما بين الروس واليابانيين عن تحطيم كامل تقريبا للأسطول الروسي ، ولم يتمكـن من الإفلات إلا طراد واحـد (cruiser) ومدمرتان ، وتمكنـت هـذه القطـع الثلاث من الوصول إلى ميناء فيلاديفوسـتك ولـم يعبـأ الأسـطول اليابـاني بمطاردتها.



سفينة القيـــادة الروسية أوريـــل (Orel)



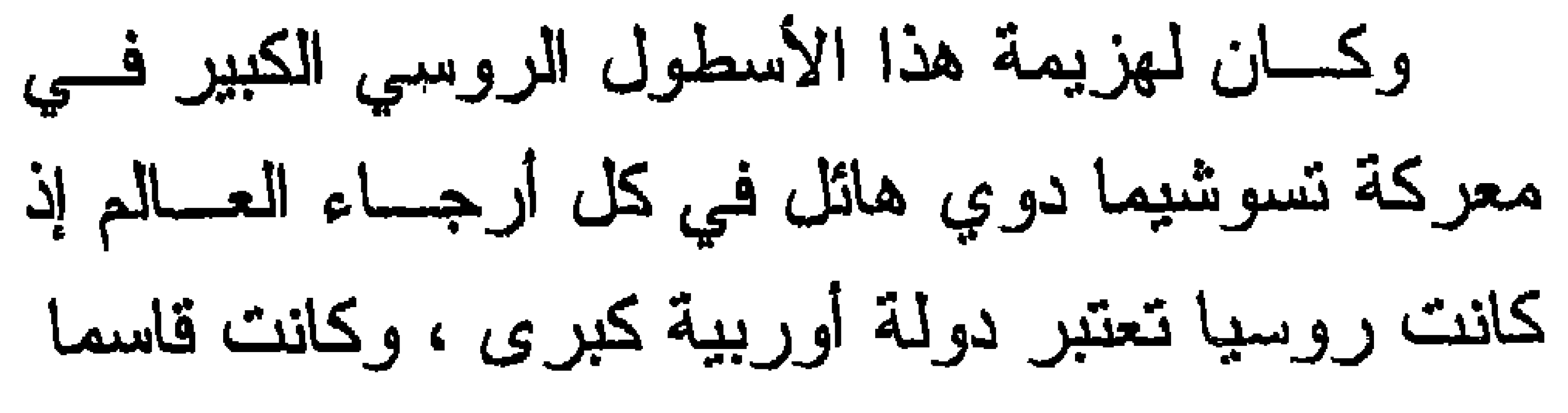
وفي تاريخ الحروب البحرية قبل هذه المعركة لـم يُصَبْ أسطول كبير بمثل ما أصيـب بـه الأسـطول الروسى من الدمار الشامل حتى أسـطول الآرمـادا الأسباني لم يصب بمثل هذه الدمار ، إذ تمكنت سـفن كثيرة من الهروب من القنال الإنجلـيزي بالملاحـة شرق وشمال الجزيرة البريطانية حتى وصلـت إلـى المحيط الأطلسي ثم إلى إسـبانيا ، وتمثلـت هزيمـة الآرمادا الإسبانية في أنه لـم يتمكـن مـن تدمـير الأسطـول الإنجليزي ولم يتمكن من تنفيذ أهدافـه ، ولكنه لم يصب بالدمار الكبير الذي أصاب الأسـطول الروسي في معركة تسوشيما سنة١٩٠٥م.



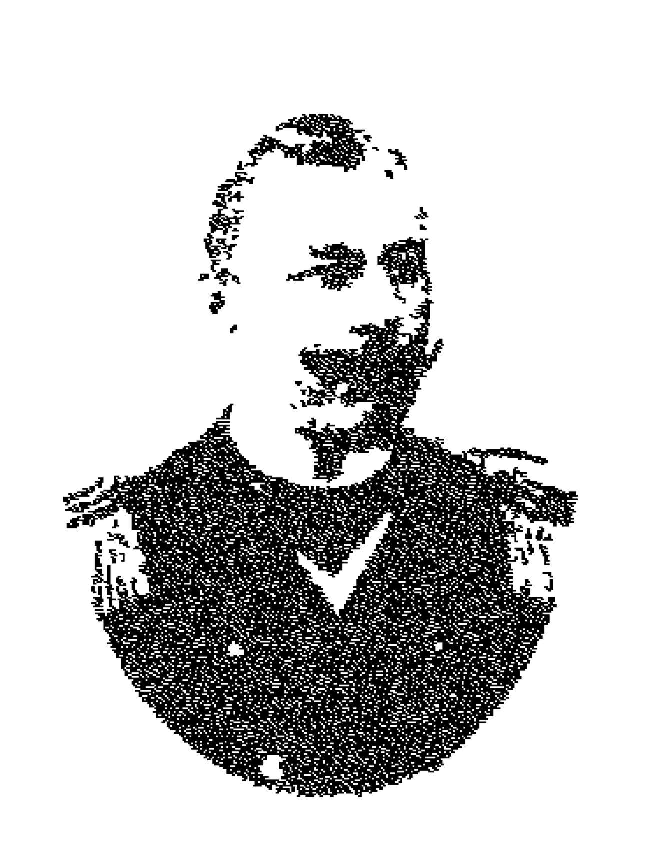
كومندانت بيير أغرق اليابون سفينته أوسلوفابيا



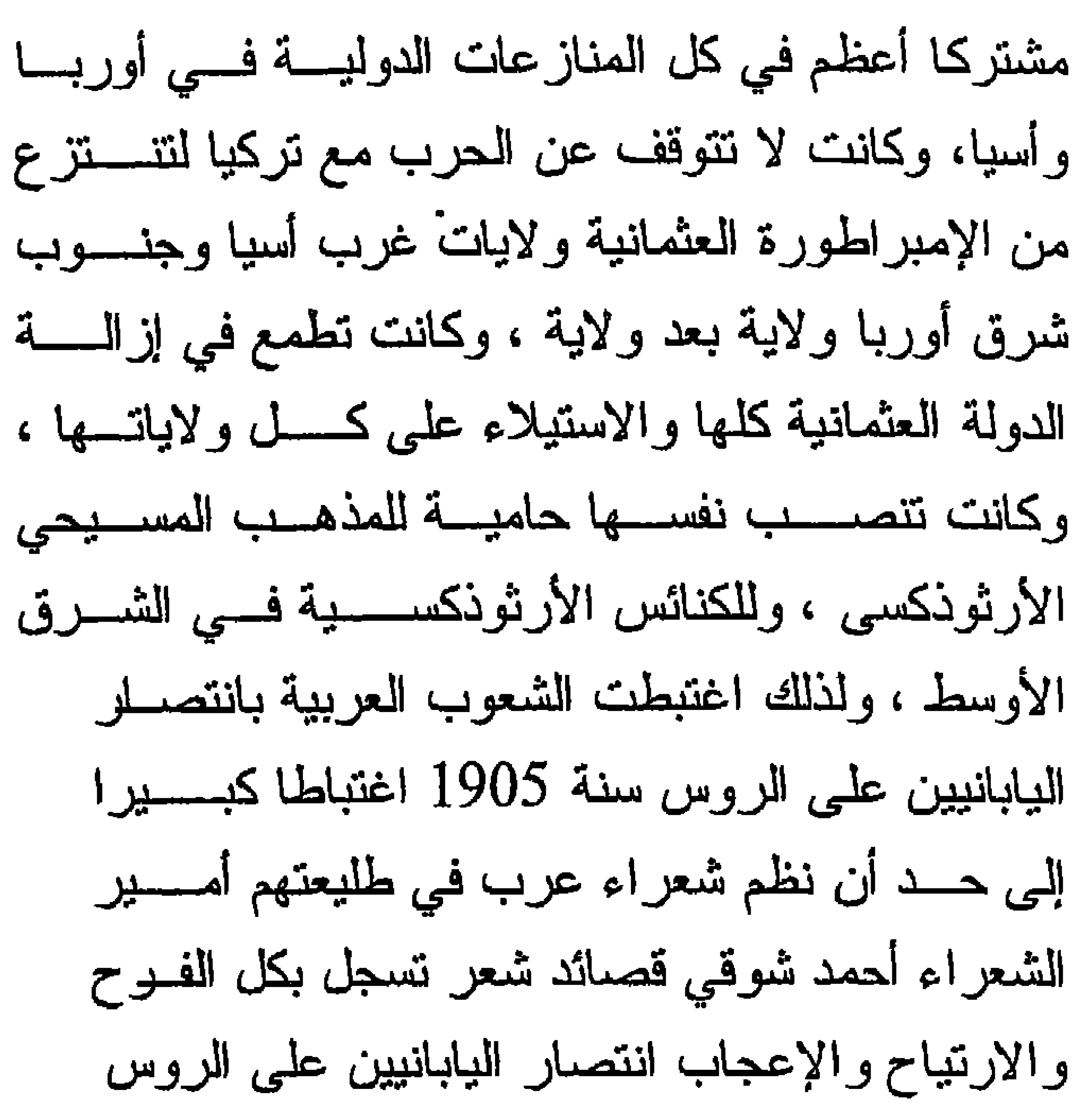
الأدميرال روز هدستفنسكي قائد ثان الأسطول الروسي



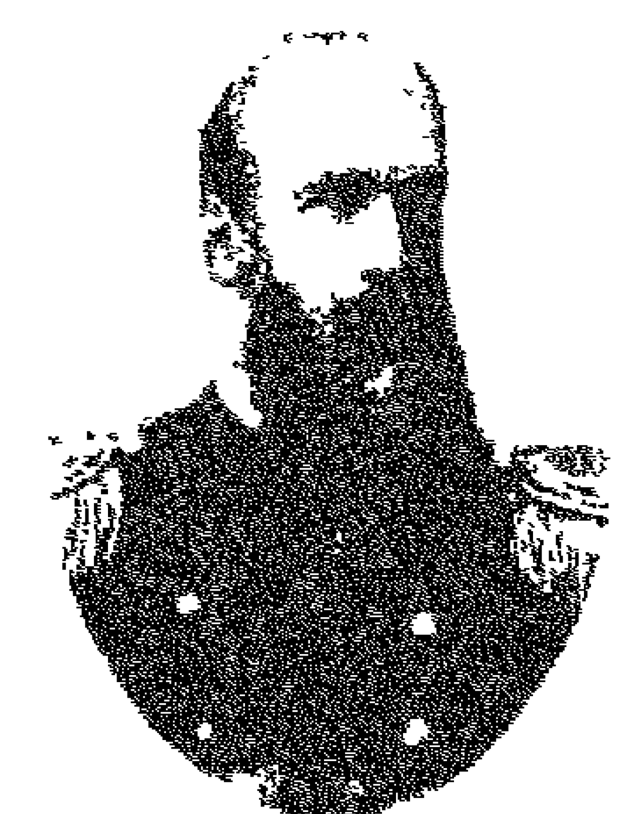
وكـان لهزيمة هذا الأسطول الروسي الكبير فـي معركة تسوشيما دوي هائل في كل أرجـاء العـالم إذ كانت روسيا تعتبر دولة أوربية كبرى ، وكانت قاسما



كومندانت بير أغرق
اليابانيون سفينته أوسلوفابيا



مشتركا أعظم في كل المنازعات الدولية في أوربا وأسيا، وكانت لا تتوقف عن الحرب مع تركيا لتنتزع من الإمبراطورة العثمانية ولاياتْ غرب أسيا وجنوب شرق أوربا ولاية بعد ولاية ، وكانت تطمع في إزالة الدولة العثمانية كلها والاستيلاء على كل ولاياتها ، وكانت تنصب نفسها حامية للمذهب المسيحي الأرثوذكسي ، وللكنائس الأرثوذكسية في الشرق الأوسط ، ولذلك اغتبطت الشعوب العربية بانتصار اليابانيين على الروس سنة 1905 اغتباطا كبيرا إلى حد أن نظم شعراء عرب في طليعتهم أمير الشعراء أحمد شوقي قصائد شعر تسجل بكل الفوح والارتياح والإعجاب انتصار اليابانيين على الروس سنة 1905م.



كومالدانت سير برياكوف
قائد السفينة بورودينو

ولم يكن لليابان شهرة في الصراعات الدولية حتى ذلك الحين ، ولم يكن العالم بوجه عام يعرف مدى قوة وإمكانات الشعب الياباني حتى بدأت هذه المصادمات البحرية بين اليابانيين والروس ، ومهد هذا الانتصار الياباني لإقدام اليابان على تحدي قوة أمريكا في معركة بيرل هاربر سنة 1941م.



كوماندانت تسكاجن
نجح في الهرب إلى فيلاديفوستك

أنهت معركة تسوشيما الصراع البحري بين روسيا واليابان بتوقيع الدولتين على معاهدة بورتسموث (Portsmouth) في شهر ديسمبر سنة 1905 م واعترف الروس

بسيطرة اليابان على ميناء بورت آرثر على الرغم من شدة حاجة روسيا إلى هذا الميناء الذي لا تتجمـد مياهـه شتاء كما هو الحال في سائر الموانى الروسـية على المحيط الهادي ، واستولت اليابان على نصف جزيرة سخالين ، واحتلـت كوريا وجلا الروس عـن منشوريا ، وهكـذا تراجعت روسيا وانكمشت أمـام اليابان في البحر والبر مما كان لـه تأثير فـي زعزعـة سـلطة القيصـر وحكومتـه في روسيا نفسها ، وهو ما يعتبره المؤرخـون تمهيـدًا للثـورة البلشفية 1917م .



كوماندانت إجنا تييف
قائد السفينة سوفايوف

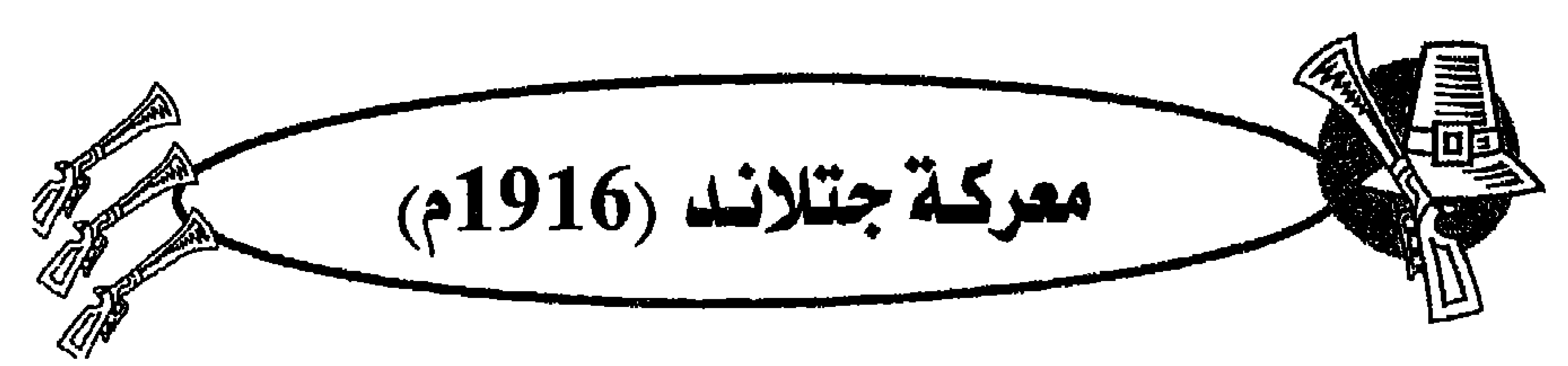


كوماندانت بوكفوستوف
قائد السفينة ألكساندر الثالث



الأدميرال نيبجاتوف
وقع في أسر اليابانيين





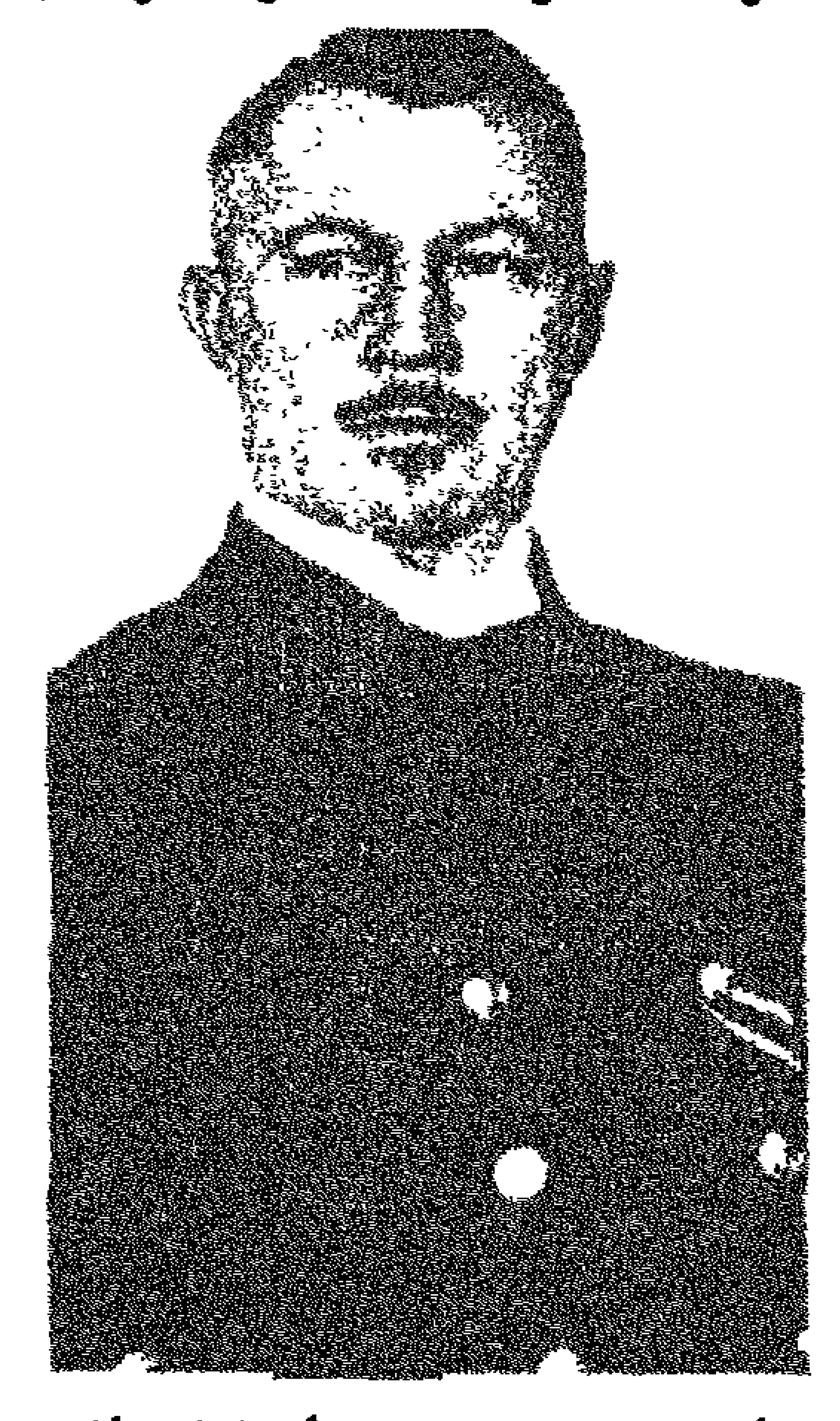
كانت معارك الحرب العالمية الأولى (1914 – 1918) مشتعلة الأوار في البر والبحر بين الدول الأوربية ، وكانت ألمانيا تتحمل العبء الرئيسي في معظم المعارك ضد الفرنسيين والروس والإنجليز ، بل إن الجيش الألماني كان يضطر أحيانا إلى الدفاع عن حلفائه في هذه الحرب مثل تركيا والنمسا والمجر وبلغاريا ، ولكن قوة بريطانيا البحرية لم تستطع أي دولة أوربية أن تبلغ ميلغها، ولم تستطع أي دولة أن تدخل في صراع بحري ضد بريطانيا ، وباءت كل المحاولات للتغلب على الأسطول البريطاني بالفشل الذريع . فشل في ذلك الأسبان والهولنديون والفرنسيون والأتراك.

وعلى الرغم من أن ألمانيا لم تدخل في صراع مبكر ضد الأسطول البريطاني ، فلقد كانت ألمانيا تعمل بكل جهدها لبناء أسطول يمكنها من الحصول على نصيب أكبر من المستعمرات وراء البحار في إفريقيا وأسيا ، ويستحيل الحصول على مستعمرات وراء البحار بدون أسطول بحري قوي يصل إلى هذه المستعمرات وراء البحار.

ولقد كان من الطبيعي أثناء الحرب العالمية الأولى أن تفرض بريطانيا على الموانى الألمانية في بحر الشمال وفي المياه المتاخمة لها من المحيط الأطلسي رقابة نشيطة مستمرة ، خصوصا أن ألمانيا كانت قد أنشأت قبل نشوب الحرب العالمية الأولى أسطولا بحريا كان من الضروري أن تحسب له بريطانيا حسابا ، واضطلع أمير البحر الأدميرال الإنجليزي جليكو (Jellico) بمراقبة نشاط الأسطول الألماني الذي كان يطلق عليه اسم أسطول أعالي البحار



الأميرال جليكو قائد الأسطول البريطاني

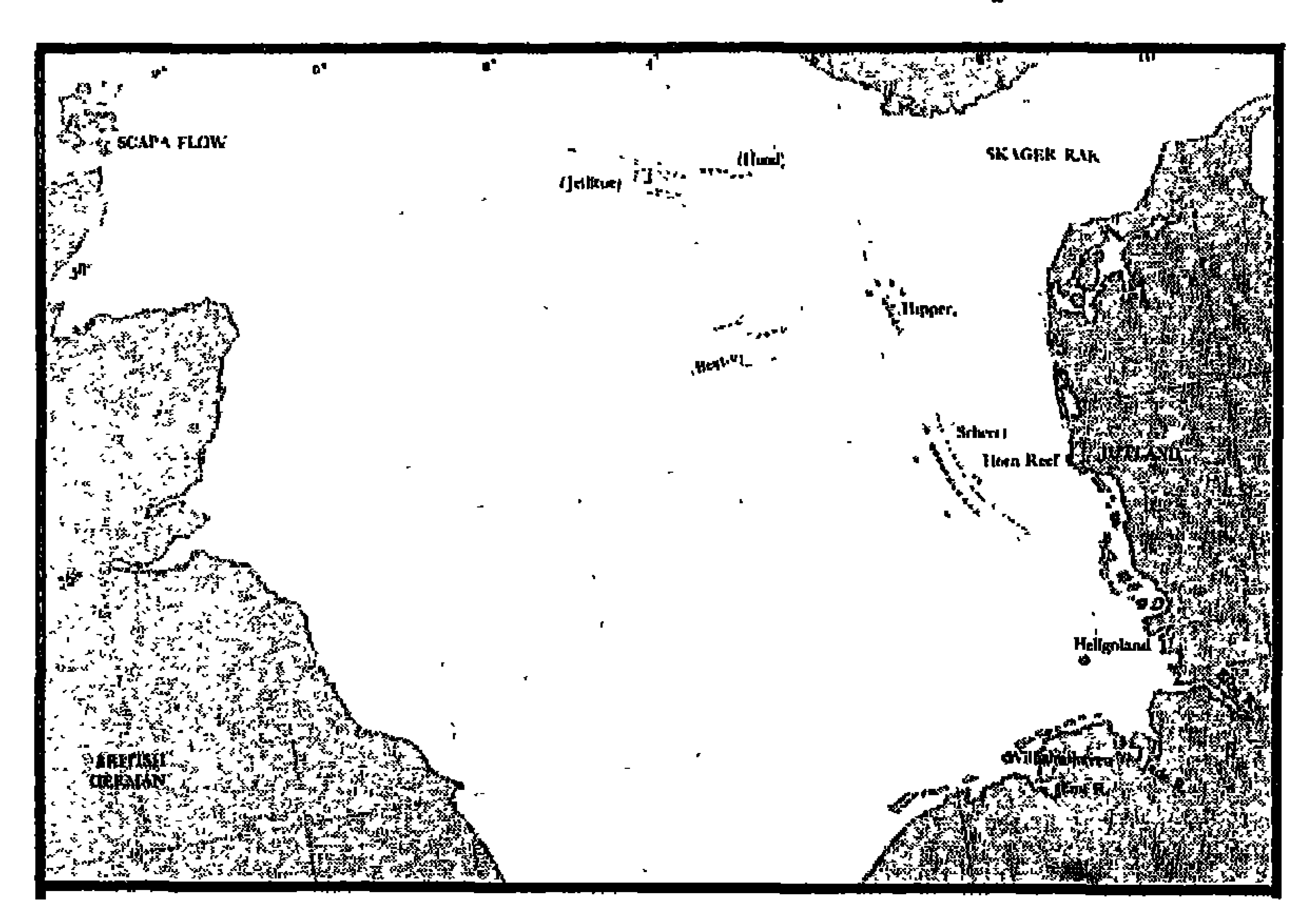


الأميرال فون شير قائد الأسطول الألماني

الألماني (The German High Seas Fleet) بقيادة الأدميرال الألماني "شير (Scheer) الذي كان يريد تنفيذ استراتيجية الانفراد بجزء من الأسطول البريطاني وتدميره ليتمكن في النهاية من إضعاف مجمل الأسطول البريطاني.

وهو ما حاوله الألمان من قبل في معركة فوكلاند (1914) (Falkland) حيث انفرد جزء من الأسطول الألماني بقيادة الأدميرال فون سبي **(Von Spee)** بسفينتين بريطانيتين عند الطرف الجنوبي لأمريكا الجنوبية ، وقام بتدميرهما، وبعد أسبوعين تمكنت بريطانيا من تدمير كل سفن فون سبى بواسطة أسطول بريطاني كان يقوده الأدميرال سير كريستوفر كرادوك (Admiral Sir Christopher Cradock). وهكذا استردت بريطانيا هيبتها البحرية على الفور. كانت المناوشات بين الأسطول الألماني الحديث الإنشاء والأسطول البريطاني العريق مستمرة عندما اشتعلت نيران الحرب العالمية الأولى. وكانت ألمانيا قد توسعت في إنشاء سلاح

الغواصات التي تختبئ تحت سطح الماء ثم تفاجئ أي أهـــداف غـير صديقـــة لألمانيا وتغرقها في مياه المحيط . وصممت بريطانيا على عدم إتاحة الفرصـــة للأسطول الألماني لكي يتمكن من القيام بنشاط حربي بحري يمكن أن تستفيد منه ألمانيا، ومن هنا جاء تكليف أمير البحر جليكو بمراقبة الأسطول الألماني الـــذي يقوده الأدميرال الألماني فون شير.



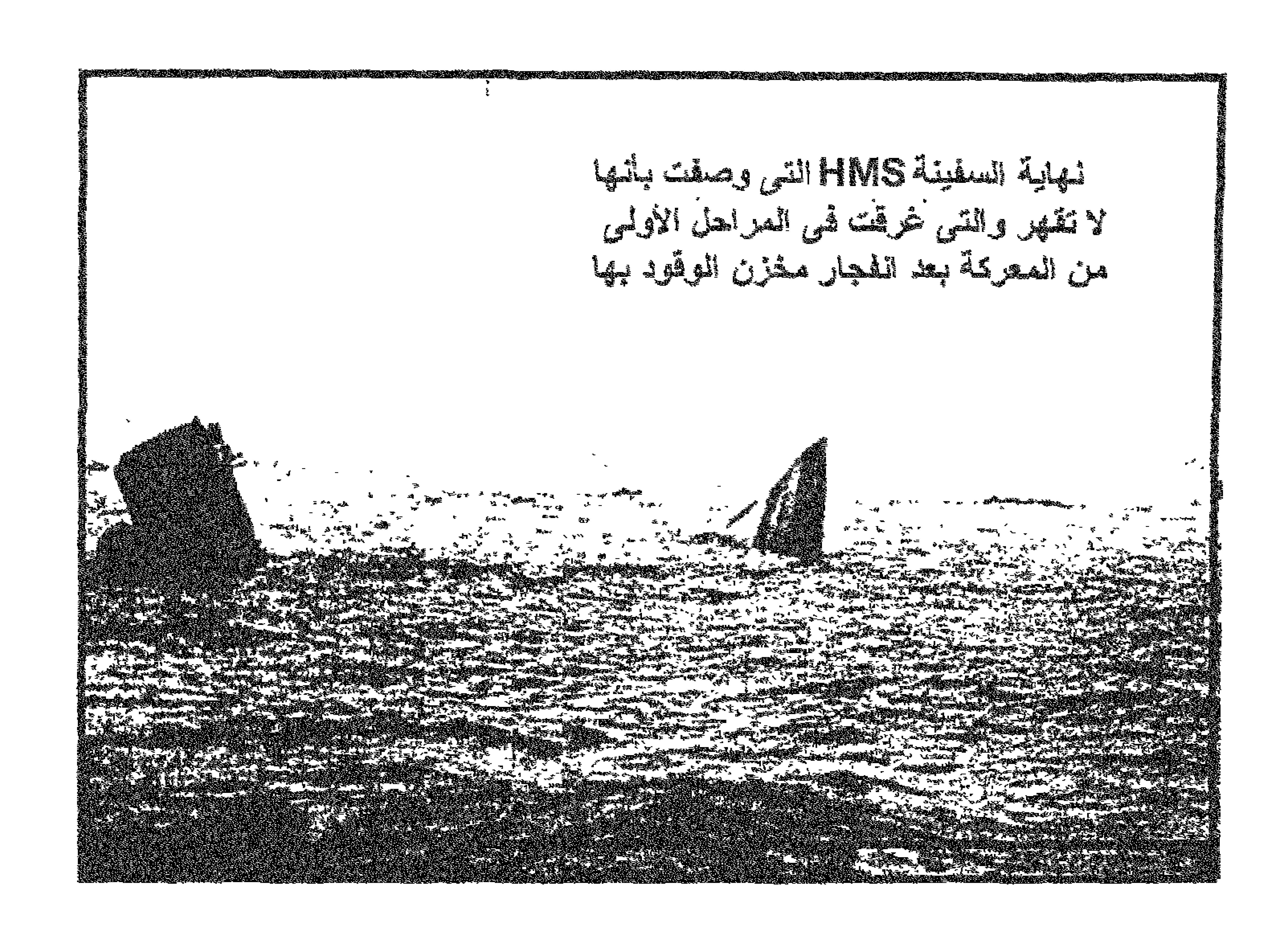
مطاردة الأسطول البريطاني للأسطول الألماني في معركة جتـــلاند

من الذي انتصر ومن الذي انهزم في معركة جتلاند البحرية ؟ ومـــا هـــو مقياس الهزيمة أو الانتصار ؟ تتوقف الهزيمة أو الانتصار على الـــهدف مـــن المعركة لدى كل من طرفيها بطبيعة الحال . ولقد كان الأســـطول البريطـــاني يهدف إلى تحطيم الأسطول الألماني في عرض البحر حيثما يعثر عليه ، ومنعـه من العودة إلى قواعده الآمنة في المواني الألمانية . ولقد كان هدف الأســـطول الألماني هو الإفلات ، مجرد الإفلات ، من سفن الأسطول البريطاني الأكبر منه قوة والعودة بأقل خسائر ممكنة إلى قواعده الآمنة في المواني الألمانية.

ولقـد تمخضت معركة جتلاند البحرية في نهاية الأمر عن نجـــاح معظـم الأسطول الألماني في العودة إلى موانيه الآمنة في ألمانيا مع تحملـــه لخســائر طفيفة ، وهو بهذا المعيار يعتبر منتصرا في معركة جتلاند البحرية . ولم يمنـــع

هذا الاعتبار من أن يعتبر الأسطول البريطاني منتصرا في معركة جتلاند البحرية حيث فر من أمامه وهرب منه الأسطول الألماني ، ولم يستطع الإقدام على منازلته في عرض البحر وهرب لكي يختبئ في الموانى الألمانية.

ولقد خسر الأسطول البريطاني بقيادة جليكو ثلاثة طرادات حربية والسفينة كوين ماري (Queen Mary) والسفينة إندفاتيجابل (Indifatigable) والسفينة إنفنسابل (Invincible) . وفي مقابل ذلك أصيبت عشرون قطعة حربية من الأسطول الألماني بأضرار ، ولكنها لم تكن أضرارا كبيرة ، ونجت ست قطع حربية ألمانية من الإصابة بأي أضرار . وكانت خسائر الأسطول البريطاني في الأرواح ستة آلاف بحار ، في مقابل ألفين وخمسمائة بحار من الأسطول الألماني.



نهاية السفينة HMS التى وصفت بأنها لا تقهر والتى غرقت فى المراحل الأولى من المعركة بعد انفجار مخزن الوقود بها

لكــن معركة جتلاند البحرية أسفرت دون شك عن بقـــاء الســيطرة البحريـــة للأسطول البريطاني في مياه المحيط الأطلسي والبحر المتوسط حتى بحر الشمال دون منازع إذ كفت ألمانيا عن محاولة مواجهة سفن الأسطول البريطاني فـــوق سطح المياه ، واتجهت جهود ألمانيا في مجال الحـــرب البحريـــة إلـــى إنتـــاج واستخدام سلاح الغواصات التي يمكن لها الاختباء في أي مكان من البحر تحت سطح الماء ثم الظهور ومفاجأة أي سفن حربية أو تجارية ، ثم معاودة الاختبـــاء تحت سطح الماء والهروب استخداما لاستراتيجية : "اضرب واهرب تحت سطح المـــاء".

ومـــن المدهش أن هذه الاستراتيجية البحرية الألمانية التي تعتمـــــد علـــى الغواصات كسلاح بحري رئيسي في الحرب البحرية من جانب ألمانيا قد أفضت إلى بث الرعب والفزع في الأساطيل الحربية والتجارية لكل دول العالم ، وكانت هى السبب المباشر لدخول أمريكا الحرب سواء في الحرب العالمية الأولـــى أو الثانية إلى جانب بريطانيا والحلفاء ، مما كان له أكبر الأثر في هزيمة ألمانيـــا سواء في الحرب العالمية الأولى أو الحرب العالمية الثانية ، ومما لا شك فيـــه أيضا أن ألمانيا قد طورت إنتاج الغواصات كسلاح بحري إلى حـــد كبير.

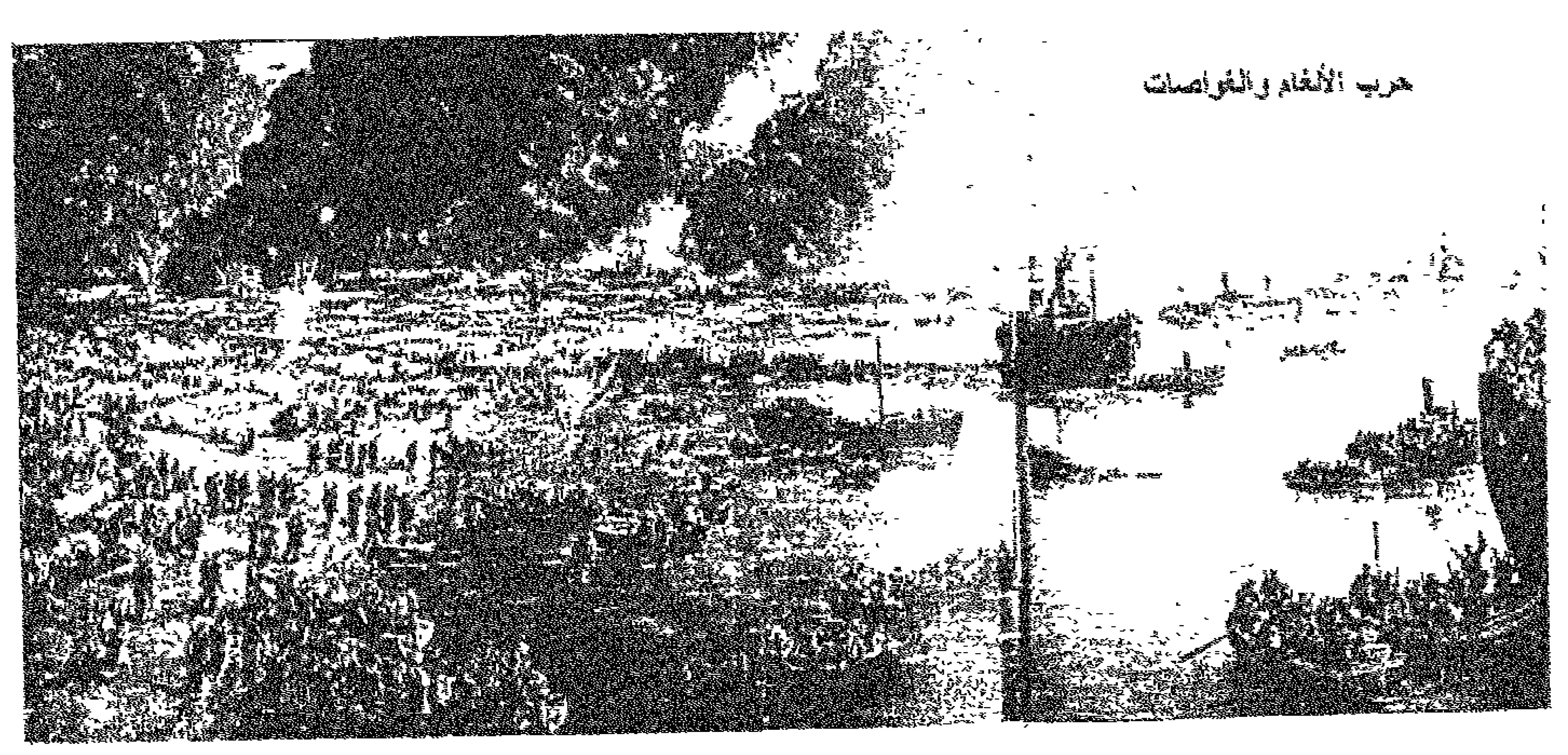




حرب الألغام والغواصات (1939م)

في يوم 3سبتمبر سنة 1939م أعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا عندما ازدادت أطماع هتلر التوسعية في وسط وشمال غرب أوربا بعد احتلاله تشيكوسلوفاكيا وبولندا وهولندا.

وكانت بريطانيا تعتمد أساسا على تفوق أسطولها البحري الذي كان يكفل لها السيطرة في مياه الأطلسي والمتوسط وغيرهما من مياه البحار ، أما ألمانيا فلقد كان أسطولها البحري حديث التكوين ، محدود العدد بموجب معاهدة فرساي التي أنهت الحرب العالمية الأولى في سنة 1919م. ولذلك اعتمدت ألمانيا على التوسع في حرب الغواصات إذ لم تكن تستطيع القضاء على الأسطول البريطاني فوق سطح مياه البحار.



وبعد عشر ساعات من إعلان بريطانيا الحرب على ألمانيا انفجرت سفينة النقل الإنجليزية "أثينيا" التي كانت حمولتها 13500 طن وهى في طريقها إلى نيويورك وتم إغراق 112 ضحية بينهم 28 أمريكيا.

ووجه الألمان إصبع الاتهام نحو تشرشل متهمين إياه أنه هو الذي أصدر الأوامر بإغراق السفينة "أثينيا" مع علمه بوجود مسافرين أمريكيين على

متنها وذلك بهدف إدخال الولايات المتحدة الأمريكية في الحرب مع الحلفاء ضد ألمانيا محاكاة لما حدث في أواخر الحرب العالمية الأولى . ونفى تشرشل الذي كان يشغل منصب وزير البحرية البريطانية هذا الاتهام بشدة ، ولكن إنكار تشرشل كان يفتقر إلى الدليل . ولقد اتضح بعد ذلك أن الغواصة الألمانية " O 30 " بقيادة الليفتنانت الألماني "لمب" هى التي كانت قد أغرقت الباخرة الإنجليزية "أثينيا".

ولم يمض يومان على إغراق السفينة الإنجليزية "أثينيا" حتى تم إغراق السفينة الإنجليزية "رويال سبكتر" ، وأعلن قائد الغواصة الألمانية "O 30"الليفتنانت الألماني "هربرت شولتزي" أنه قد أغرق السفينة الإنجليزية وأرسل برقية إلى الأدميرالية البريطانية يخطر ونستون تشرشل بمكان إغراق السفينة "رويال سبكتر" ويطلب منه محاولة إنقاذ ركابها من الغرق.

وهكذا بدأت الحرب البحرية بين ألمانيا وبريطانيا ، وكان يبدو بوضوح أن ألمانيا تعتمد استراتيجية حرب الغواصات ضد السفن الحربية والتجارية البريطانية على حد سواء . ألم تعلن بريطانيا الحرب على ألمانيا ؟ أما وقد أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا فلتتحمل بريطانيا نتائج إعلانها الحرب على ألمانيا . ستغدو كل قطعة بحرية حربية أو تجارية هدفا لسلاح الغواصات الألماني الذي كانت ألمانيا تعتمد عليه لتقليم أظافر الأسطول البريطاني الممتد فوق بحار العالم ، إذ أن ألمانيا كانت تدرك أن الحرب العالمية الثانية قد بدأت وقواتها البحرية أعجز ما يكون عن مواجهة الأسطول البريطاني المتفوق فوق سطح مياه البحار ، ومن هنا اتجهت ألمانيا إلى الاعتماد على الغواصات للحد من تأثير الأسطول البريطاني.

لم تكن البحرية الألمانية تملك سوى ثلاث بوارج صغيرة هى : أدميرال جراف ، وأدميرال شير ، ودويتشلاند ، وتزن كل منها عشرة آلاف طن طبقا لنصوص معاهدة فرساي . وقامت ألمانيا ببناء طرادين كل منهما 26 ألف طن هما : الطراد "شارنهورست" والطراد "جنازناو" كما قامت ببناء طراد ثقيل هو

الطراد "برنتر أوجين" ، كما قامت ألمانيا ببناء 22 مدمرة وبارجتين هما "بسمارك" والبارجة "تيربيتز" زنة 35 ألف طن.

وكان إنتاج ألمانيا للغواصات قد بدأ على يد الأدميرال الألماني "كارل دونيتز" عام 1935 بإنتاج ثلاث غواصات . وبعد أربع سنوات كان عدد الغواصات الألمانية قد وصل إلى سبع وخمسين غواصة.

أما الأسطول البريطاني عند بداية الحرب العالمية الثانية فلقد كان يتألف من أفضل 13 سفينة قتال في الحرب العالمية الأولى ، وحولت بريطانيا باقي السفن الحربية إلى سفن تجارية ، ولم تظهر البوارج الحربية البريطانية من طراز "الملك جورج الخامس" إلا في عام 1941 . وكان لدى بريطانيا ست حاملات للطائرات.

وبالنسبة للقطع الحربية البحرية البريطانية الخفيفة كان لدى بريطانيا (15) طرادا فئة (8) بوصات ، و (49) طرادا فئة 6 بوصات ، و (184) مدمرة ، مع بقاء 38 سفينة شراعية بريطانية مسلحة مملوكة للأسطول البريطاني.

وكان الأسطول البحرى الإيطالى حديث الإنشاء ويتألف من أربع بوارج جديدة هى : "فيتوريو فينيتو" و "ليتوريو" حمولة 35 ألف طن ، وسبع طرادات ثقيلة ، و١٢ طرادا خفيفا ، و٥٩ مدمرة ، و٦٩ زورقا لأعمال النسف البحري ، و (205) غواصات . وحيث إن إيطاليا قد تحالفت مع ألمانيا بعد تردد فمن الممكن اعتبار الأسطول الإيطالي فى حالة حرب ضد الأسطول البريطاني والفرنسى ، وكان الأسطول الإيطالى شبه مجمد لم يسمح له موسولينى بأي نشاط بحرى يذكر.

وكان الأسطول الفرنسي يتألف من 3 بوارج قديمة وسفينتين حربيتين فئة 26 ألف طن هما "دانكرك" و"ستراسبورج" . وكانت فرنسا تمتلك أيضا 18 طرادا ثقيلا.

وعنـــد بداية الحرب العالمية الثانية كانت السفن البريطانية تتعرض بطريقة غامضة للتدمير والإغراق في أماكن متفرقة من البحار ، ووصل الأمـــر إلـــى حـــد تدمير ست سفن بريطانية دفعة واحدة في مصب نهر التيمز نفسه ، وكذلك تعرضت البارجة الضخمة نيلسون لعملية تفجير ألحقت بها أضـــرارا جســـيمة. وعندئذ دخل الأميرال السير "دادلي باونـــد" على تشرشل في مكتبه وقال لـــــــه بغضب : "إن الألمان يملكون سلاحا سريا خطيرا يكـــاد يقضـــي علـــى ســـفن الأسطول الإنجليزى ومن المستحيل تكليف السفن الإنجليزية بأى مهام ما لم يتـــم التوصل إلى اكتشاف هذا السلاح ومعرفة حقيقتـــه !"

ولم يلبث السر الألمانى أن انكشف من تلقاء نفسه ، إذ إنـــه فـــي يـــوم 22 نوفمبر سنة 1939 أسقطت المدفعية البريطانية المضادة للطائرات طائرة ألمانية كانت تفرغ حمولتها ، وهى عبارة عن أجسام صلبة كبيرة الحجم عند "ســـاوث إنـــد" في مدخل نهر "التيمز" ، وبعض هذه الأجسام التي كانت الطائرة الألمانيـــة تسقطها لم يختف في الماء بل غاصت بعض هذه الأجسام في أوحـــال وطمـــي الشاطئ وأمكن لخبراء المتفجرات الإنجليز التقاطها وإبطال أجهزة التفجير فيها، وتم على الفور فحصها ليتم اكتشاف سر الانفجارات التي كانت تدمـــر الســـفن البريطانية دون اقتراب أي سفن أو غواصات ألمانية منـــها . كـــانت الأجســـام الضخمة الغريبة "ألغاما مغناطيسية " سليمة لم تنفجر ، وكانت الطائرات الألمانية تلقي بها في المناطق البحرية التي يحتمل وجود أو مرور السفن الإنجليزية بها . ولما كانت أجزاء من السطح الخارجي في غـــاطس الســـفن مـــن حديـــد فيـــه مغناطيسية ، وكانت الألغام ذاتها ممغنطـــة إلى حـــد كبير فلقـــد كانت الألغـــام الضخمة الشديدة الانفجار تفتك بالسفن الإنجليزية وتثير الذعر في قلوب رجـــال الأسطول البريطاني على نطاق واسع . واتخـــذت بريطانيا الإجراءات اللازمـــة على الفور لإبطال مفعول الألغام المغناطيسية الألمانية . واعتمـــدت ألمانيا بعـــد ذلك اعتمادا رئيسيا على حرب الغواصات لتقليم أظافر الأســـطول البريطـــاني والحـــد من سيطرته البحرية.

وبدأت حرب الغواصات الألمانية ضد الأسطول البريطاني بضراوة وشراسة كما لو كانت ألمانيا قد أزمعت القضاء على الأسطول البريطاني كله بالاعتماد على حرب الغواصات . كانت ألمانيا بالفعل تهدف إلى تجميد نشاط الأسطول البريطاني الحربي والتجاري عن طريق حرب الغواصات . ولحماية السفن التجارية كانت تصاحبها البوارج الحربية والطرادات والقوارب المسلحة . وبالرغم من كل هذه الاحتياطات البريطانية لسلامة النقل البحري التجاري بدأ تدمير السفن في هذه القوافل التجارية يتلاحق . وبلغ عدد السفن التي دمرتها الغواصات الألمانية في شهر سبتمبر عام 1939م إحدى وأربعين سفينة. وتم تدمير 27 سفينة في شهر أكتوبر 1939. وتم تدمير 25 سفينة في شهر ديسمبر 1939 ومعنى ذلك أن الغواصات الألمانية قد قامت بتدمير ما مجموعه 114 سفينة حمولة 420 ألف طن خلال الأربعة أشهر الأخيرة من عام 1939. ولم يقتصر التدمير على السفن التجارية أو الحربية الصغيرة ، بل تعداها إلى السفن الحربية البريطانية الضخمة مثل حاملة الطائرات "كوريموس" التي دمرتها الغواصة " **O29** " بقيادة الكومندانت الألماني "شوهارت".

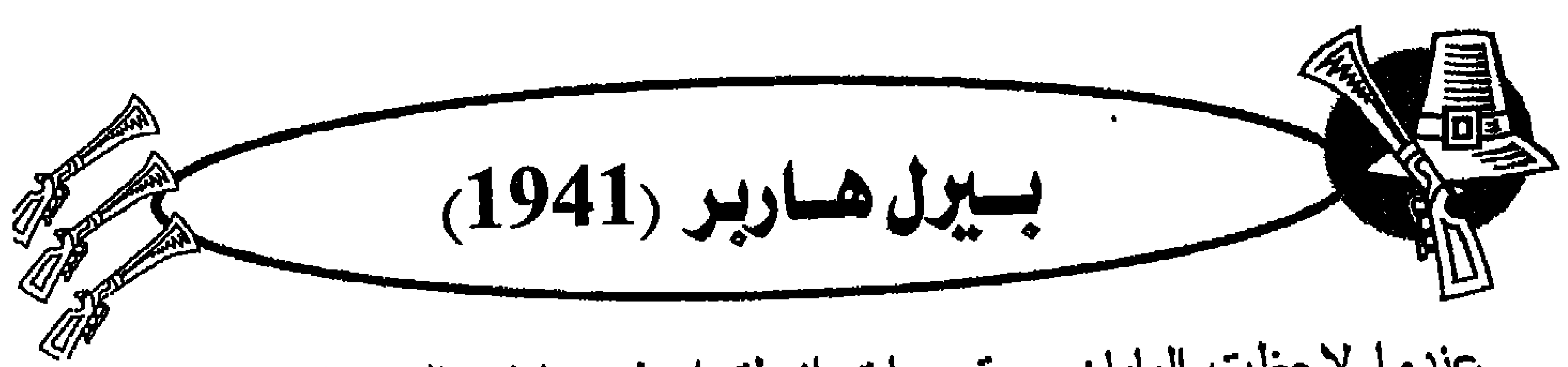
وفي 14 أكتوبر 1939م دمرت الغواصة الألمانية (O 47) بقيادة اللفتنانت "جونتر برين" البارجة الإنجليزية "رويال أوك" وأغرقتها في خليج "سكابافلو" وغرق بداخلها 24 ضابطا و 809 بحارة بريطانيين.

وعملت بارجتان ألمانيتان على تدمير السفن الحربية والتجارية في المحيط الأطلسي وهما البارجتان "جراف شي" و"دويتشلاند" . وكانت البارجة الأولى تعمل شمال المحيط الأطلسي بينما كانت الثانية تعمل جنوب الأطلسي وكانت كل منهما مزودا بمدافع عيار (11) بوصة.

وصممت البحرية البريطانية على ضرورة تدمير هاتين البارجتين الألمانيتين . وتم تخصيص أسطول بريطاني يتكون من بوارج وطرادات وحاملات طائرات للبحث على كل من المدمرتين الألمانيتين وتدميرهما. وتمكن الأسطول البريطاني بعد عناء طويل من العثور على البارجة الألمانية "جراف

شـــي" بقيادة "لانجسدورف" إذ واجهتها ثلاث قطع حربيـــة بريطانيـــة بقيـــادة الأدميرال " هاروود" وانضمت إليه أيضا السفينة "كمبرلاند" بالقرب من "بـــورت ستانلي" واضطر "لانجسدورف" إلى اللجوء إلى مينـــاء "مونتفيديـــو" لإصـــلاح الأضرار التي لحقت بالبارجة الألمانية وتم حصاره في هذا الميناء بحيث كـــان خروجه من الميناء يعني تدمير البارجة المحاصرة . وكان هتلـــر يريـــد مـــن "لانجسدورف" أن يغرق البارجة الألمانية بكـــل بحارتـــها بحيـــث لا يستســـلم محاربون ألمان للإنجليز إلا أن "لانجسدورف" رفض تنفيذ أوامر هتلر ، وأخلـــى السفينة من كل البحارة ثم قام بتدميرها عنـــد "مونتفيديـــو" يـــوم 17 ديســـمبر 1939م ثم انتحر هو نفسه في نفس اليوم . وربما كانت هذه الحادثة لـــها أثـــر كبير في صرف اهتمام هتلر عن الحرب البحرية ضد بريطانيا وتركيزه علـــى الحرب البرية والحرب الجوية ، لتظل بريطانيا طوال سنى الحـــرب العالميـــة الثانية كما كانت قبل أعوام الحرب العالمية الأولى وما قبلها هى سيدة البحـــار، وخصوصا بعد أن ألحقت البحرية البريطانية خسائر فادحة بالأسطول الألمـــاني الذي حاول غزو النرويج والسويد ، إذ خسرت ألمانيا عشر مدمرات في مينـــاء نرفيك ، وفي يوم 15 أبريل 1940م لم يبق من الأسطول الألمـــاني ســـوى 4 مدمرات من أصل 22 مدمرة . وهكـــذا فقـــد هتلر معظم أسطوله البحري فـــي محاولته الحصول على الحديد من السويد عن طريق النرويج.





بيرل هاربر (1941)

عندما لاحظت اليابان مستعمرات انجلترا وفرنسا في الهند الصينية وفي بلاد الصين نفسها قررت أن تحصل على نصيبها من المغانم الصينية ، ونشبت الحرب بين اليابان والصين عام 1894 و 1895 ، وألحقت اليابان هزيمة ساحقة بالصين وفرضت عليها القبول بشروط معاهدة "شيمنسكي Shimenseki" تخلت الصين بموجبها عن كوريا وعن جزيرة فورموزا وعن شبه جزيرة ليسوتانج بما في ذلك ميناء بورت آرثر.

وكانت روسيا تتطلع إلى الاستيلاء على ميناء بورت آرثر بالذات ؛ لأنه يمتاز بالمياه الدافئة طوال السنة وهى ميزة غير متاحة للموانى الروسية في شمال المحيط الهادي.

وإزاء اعتراض روسيا وفرنسا على احتلال اليابان لميناء بورتسمورث اضطرت اليابان إلى التخلي عن هذا الميناء على أساس أن تعود السيطرة عليه إلى الصين ، إلا أن روسيا هاجمت الصين واستولت على منشوريا وهددت باحتلال كوريا واستولت على ميناء بورت آرثر فثارت ثائرة اليابان وقامت الحرب بين البلدين اعتبارا من شهر فبراير سنة 1904 ، وألحقت اليابان بالسفن الحربية الروسية في شمال غرب المحيط الهادي خسائر فادحة قضت على أي وجود بحرى روسي في المحيط الهادي وأعادت احتلال ميناء بورت آرثر.

وحاولت روسيا تأديب اليابان فعمدت إلى تحريك الأسطول الروسي في بحر البلطيق وبحر الشمال لمواجهة الأسطول الياباني والقضاء عليه إلا أن الأسطول الياباني حطم ودمر الأسطول الروسي في معركة تسوشيما سنة 1905 م ، واضطرت روسيا إلى التوقيع على معاهدة بورتسموث في ديسمبر سنة 1905م وبموجبها اعترفت روسيا بسيادة اليابان على ميناء بورتسموث ونصف جزيرة سخالين وكوريا الجنوبية ، وجلا الروس عن منشوريا.

ومنــذ ذلك الحين أصبح للأسطول الياباني السيادة والسيطرة فـــي شـــمال المحيط الهادى ، وازدادت أطماع اليابان في بلاد الصين وكوريا والهند الصينية وأندونيسيا والفلبين وماليزيا ، وتوغلت أساطيلها وقواتها البرية في هذه البـــلاد نظرا لانهيار فرنسا في مطلع الحرب العالميـــة الثانيـــة ، وانشـــغال بريطانيـــا بالحرب في المحيط الأطلسي وأوربا . وكان من الطبيعي أن تشـــعر الولايـــات المتحدة الأمريكية وهى تطل أيضا على المحيط الهادي بـــالقلق مـــن التوســـع الياباني فقامت بفرض حصار اقتصادي على اليابان ، وأسهم في هذا الحصـــار كل من بريطانيا وفرنسا.

وحاولت اليابان التفاوض مع الولايات المتحدة الأمريكية نظـــرا لإمكانـــات الولايات المتحدة الأمريكية الضخمة التي لم تكن اليابان ترغب في أن تتحداهـــا، وحاول إمبراطور اليابان وولى العهد الأمير "كونوي" والسفير اليابـــاني لـــدى أمريكا "تومورا" ولكن أمريكا كانت تضع شرط انسحاب اليابان من جنوب شرق أسيا والهند الصينية وأندونيسيا لرفع الحصار التجاري عن اليابـــان . وأصبـــح السؤال لدى اليابانيين هو: هل نختنق ولا نحصل على ما يلزم من بترول ومواد ضرورية أم نتخلى عن مكاسبنا التي حصلنا عليها بالحرب المريرة والتضحيـــة بالمال والأرواح والمعـــدات طوال سنوات في جنـــوب شـــرق أســـيا والـــهند الصينية؟

حـــددت اليابان شروطها أثناء المفاوضات مع الولايات المتحدة بحيـــث لا تتدخل أمريكا ولا بريطانيا في النزاع الصيني الياباني ، وعـــدم تخلى اليابـــان عن مستعمراتها في جنوب شرق أسيا ، وعدم فرض حصار تجاري أمريكـــي بريطاني فرنسي على اليابان.

وحاول الإمبراطور الياباني تعزيز الجهود الدبلوماسية للوصول إلـــى هـــذه المطالب اليابانية فعزز السفير الياباني "تومورا" بجهود دبلوماسي ياباني معروف بميوله نحو صداقة أمريكا وهو الدبلوماسي الياباني "سابورا كورسو" الذي كـــان متزوجا من أمريكية وكان يحظى بثقة الأمريكيين.

ورفضت أمريكا المطالب اليابانية ، وانتصرت وجهة نظر القادة اليابانيين الذين كانوا يرون ضرورة الحرب ضد الولايات المتحدة الأمريكية.

وكان الأميرال "إيسوروكو ياما موتو" يدرك أن مخزون البترول في اليابان لا يكفي لأكثر من عام واحد ، وكان يعتقد إزاء فشل المفاوضات السلمية مع أمريكا أن اليابان تستطيع أن تحصل بالقوة على كل أهدافها عندما تتمكن من الاستيلاء على هونج كونج وماليزيا وسنغافورا وسومطرة وبورنيو وجاوا . وعندئذ تستطيع اليابان أن تحصل على كل مطالبها من المواد الخام كالبترول والمطاط والحديد والقصدير عندما ينفتح لها العالم على هذا النحو . وماذا يحول دون أن يتحقق لليابان ذلك ؟

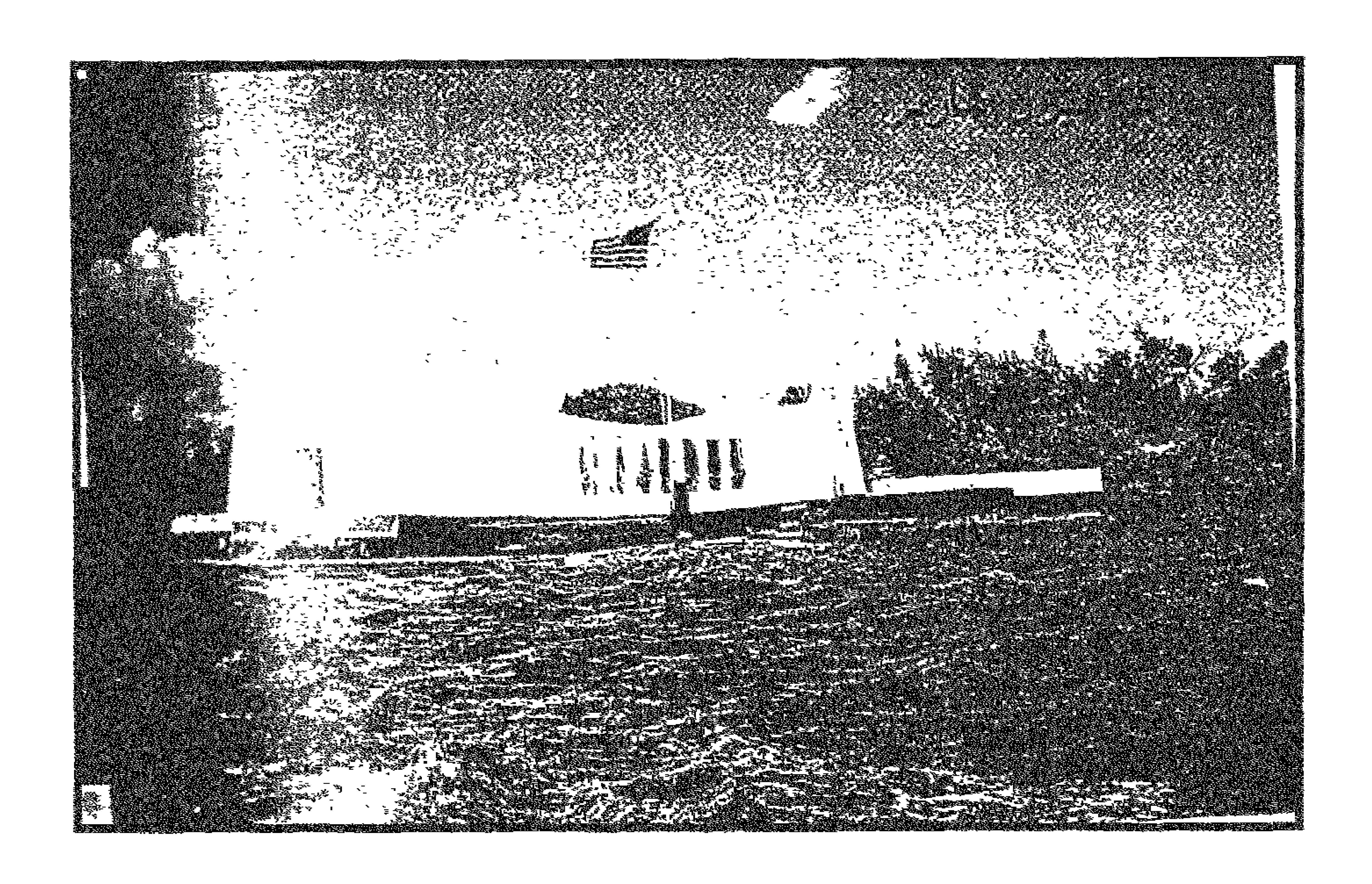
هل يحول الأسطول الأمريكي في المحيط الهادي دون أن تحقق اليابان هذه الأهداف ؟ وكانت وجهة نظر الأميرال "ياما موتو" تتلخص في أن تدمير الأسطول الأمريكي في المحيط الهادي ممكن لليابان كما استطاعت اليابان تدمير الأسطول الروسي في معركة تسوشيما سنة 1905م ، ولو تمكن الأسطول والسلاح الجوي الياباني من ذلك ستحتاج الولايات المتحدة الأمريكية إلى ما لا يقل عن ثلاث سنوات لبناء أسطول أمريكي جديد.

ولقد كانت البحرية اليابانية من أحدث وأقوى الأساطيل البحرية في العالم،وكانت تضم عشر بوارج ضخمة وعشر حاملات طائرات عملاقه ، و٣٥ طرادا حربيا كبيرا ، و٦٤ غواصة . وكان الأسطول الياباني يمتلك أقوى وأكبر سفينتين في العالم وهى السفينة "ياماتو" والسفينة "موساشي."

وبعد التدريب التام على عملية سحق الأسطول الأمريكي في بيرل هاربر بالمحيط الأطلسي تحدد يوم الأحد٧ ديسمبر سنة 1941م لتنفيذ هذا الهجوم. وقد فضل اليابانيون يوم الأحد لبدء الهجوم على اعتبار أن الأمريكيين يعتبرون بعد ظهر يوم السبت ويوم الأحد عطلة نهاية الأسبوع وينصرفون في الغالب الأعم إلى الراحة والاسترخاء.

واستمر اليابانيون في مواصلة المفاوضات السياسية مع الولايات المتحدة

الأمريكية كجزء مهم من التمويه على الاستعدادات اليابانية لتدمير الأسطول الأمريكي في بيرل هاربر.



تبعد "بيرل هاربر" عن جزيرة "هونولولو" مسافة 15 كم ويفصل بينها وبين جزيرة فورد أيلند خليج ضيق يبلغ عرضه أقل من نصف كيلومتر. والمياه في هذا الخليج ليست عميقة بطبيعة الحال.

وكان الهجوم الياباني على الأسطول الأمريكي متوقعا بسبب تعثر المفاوضات، وتمسك كل من اليابان وأمريكا بشروطهما دون تقديم أي تنازلات. وبعث وزير الخارجية الياباني برقية إلى السفير الياباني في الولايات المتحدة تومورا وزميله "سابورا كيروسو" يقول لهما بالحرف الواحد: "لقد قمتما بجهود كبيرة في مهمتكما كسفيرين لحكومة اليابان إلا أن الولايات المتحدة الأمريكية قد تمسكت بشروط مذلة ومهينة وضارة باليابان. لقد انتهت المفاوضات، تصرفا كأن شيئا لم يكن وانتظرا تعليمات أخرى." وعندما علم الأمريكيون بوصول هذه البرقية شعروا أنها بمثابة إعلان حرب على الأسطول الأمريكي في المحيط

الهادي بوجه عام ، وفي بيرل هاربر حيث تتجمـــع معظـــم القـــوة الضاربـــة للأسطول الأمريكي بوجه خاص.

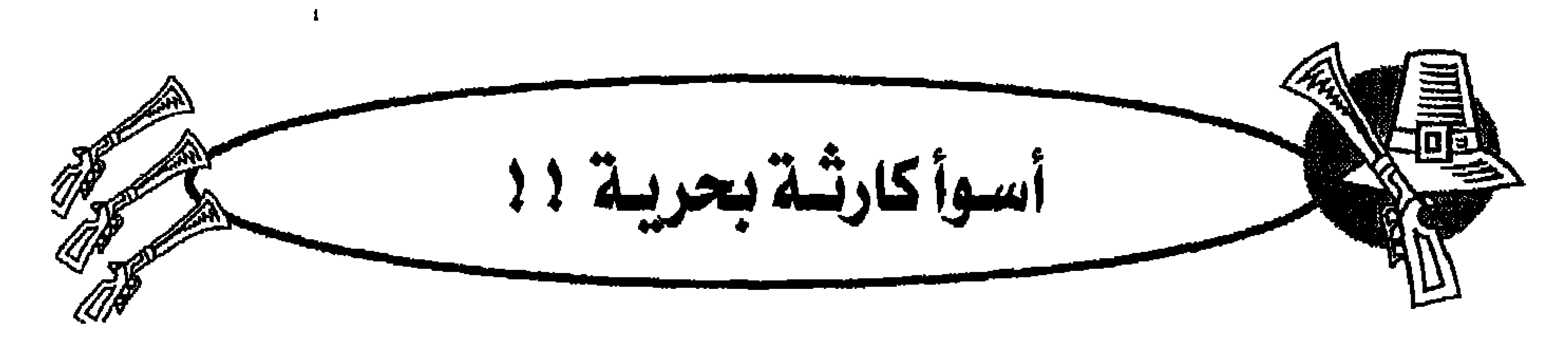
وفى صباح يوم 7 ديسمبر 1941م كان قائد الأسراب اليابـــاني "ميتســـوو فوشيدا" يقود 143 طائرة منها 43 طائرة مقاتلة من طراز "زيكي" ، و٥١ قاذفة من طراز "فال" ، و٤٠ طائرة حاملة طوربيدات من طـــراز " كاتـــــي" ، و٤٩ طائرة أخرى من طراز كاتي ولكنها قاذفة أفقية ، وانقضت الطائرات اليابانيـــة لتدمر على الفور سبع بوارج أمريكية في دقائق معدودة ، ولتدمر معها الســـفينة الضخمة "أوكلاهوما" ، وعادت الطائرات اليابانية أدراجها سالمة لكـــي تفســـح الطريق لموجة أخرى من الطـــائرات اليابانيـــة يقودهـــا الليفتنـــانت كومـــاندر "شيمازاكي" ، وتتألف من 171 طائرة ، ولكن الدخان المتصـــاعد مـــن ســـفن الأسطول الأمريكي المشتعلة كان يعوق عمل طائرات هذه الموجة الثانية مـــن الطيران الياباني ، كما أن المدفعية المضادة للطائرات بدأت في إطلاق قذائفـــها نحـــو سماء الطائرات اليابانية المغيرة . وتمكنت الموجة الثانية من الطـــائرات اليابانية من تدمير حاملات الطائرات الأمريكية ومن إغراق السفينة الأمريكيـــة "أوكلاهوما" وثلاث سفن أخرى هى "تنيسي" و"وست فرجينيـــا" و "أريزونـــا" ، وشبت النيران أيضا في البارجة "نيفادا" وفي "بنسلفانيا".

وعلى أثر النجاح الياباني التام في تدمير الأسطول الأمريكـــي فـــي بـــيرل هاربر نشطت آلة الحرب اليابانية في احتلال جزيرة ميدواي وجوام ، كما نـــزل الجنود اليابانيون في سيام وماليزيا وبورينو والفلبين ؛ أي أن اليابان قد اعتبرت أن نجاحها في بيرل هاربر كفيل بأن يفتح لها باب الغزو والتوسع العسكري في جنوب شرق اسيا لتحقق كل أهدافها ، ولكن الولايات المتحدة الأمريكية أعلنـــت الحرب على اليابان بإجماع الآراء في الكونجرس الأمريكي عدا صوت واحـــد هو صوت نائبة عجوز كانت قد اعترضت أيضا على دخول أمريكـــا الحـــرب العالمية الأولى.

واستطاعت الولايات المتحدة الأمريكية أن تبني أسطولا بحريا قويا على أحدث طراز في وقت وجيز ، كما أن إنتاج الطائرات الحربية الأمريكية كان إنتاجا غزيرا ، وأخيرا حسمت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب في المحيط الهادي عندما أنتجت القنبلة الذرية وألقت القنبلة الذرية الأولى على مدينة هيروشيما اليابانية يوم 6 أغسطس عام 1945م لكي تنتهى بذلك الحرب العالمية الثانية بين الولايات المتحدة الأمريكية واليابان.

ومن الغريب – وهو جدير بالتأمل– أن اليابانيين والألمان بعد هزيمة كل منهما في الحرب العالمية الثانية ، وبعد إلقاء السلاح والكف تماما عن أي نشاط عسكري قد صادفا نجاحا اقتصاديا باهرا جعل كلا من اليابان وألمانيا قوة اقتصادية كبرى.





نعم إنها أسوأ كارثة بحرية "راح ضحيتها نحو تسعة آلاف قتيل" إنها كارثة غرق السفينة "ويليهام جوستلوف Wilhelm Gustloff" فى خليج "دانزج" ... كانت حمولة السفينة أكثر من خمسة وعشرين ألف طن ، وعلى متنها ما بين أربعة آلاف وتسعة آلاف من اللاجئين .. غرقوا جميعا .. وهذه كارثة ليس لها مثيل من قبل فى التاريخ !!

ولكن لماذا لم يشتهر أمر هذه الكارثة ؟ !

لقد غطى ضجيج الحرب العالمية الثانية على هذه المأساة المفجعة ، فمرت وكأنها حدث عادى فى هذا الوقت ..

فكيف بدأت المأساة ؟

يقول الأستاذ / جمال الكاشف فى كتابه "مقتطفات من تاريخ العالم" :

تبدأ مأساة هذه السفينة ببداية تراجع قوات هتلر عام 1944 .. كانت معركة "بولج " هى أمل هتلر الأخير فى أن يبقى زمام المبادرة في يده ، وعندما خسرت القوات النازية هذه المعركة أمام القوات الروسية الزاحفة على بولندا ، الأمر الذى مهد لها احتلال وارسو فى يناير عام 1945 ، مما اضطر معه الألمان المندحرون إلى إخلاء المناطق المهددة من قبل الحلفاء فى أسرع وقت ممكن . .

وبناء عليه اجتمع الفوهرر بقائد الأسطول الألمانى فى ذلك الوقت ، أمير البحر "كارل دونيتز" وأسفر الاجتماع عن قرار بتخصيص السفن الحربية الاحتياطية التى لم يعد لها احتياجات استراتيجية لعمليات نقل اللاجئين الألمان إلى الأماكن الآمنة ، ومن بين السفن التى وقع عليها الاختيار لإجلاء الألمان بالسرعة الممكنة كانت السفينة "ويليهام جوستلوف" ، والتى بنيت لنقل الركاب،

وتم إنزالها إلى البحر قبل بـدء الحرب العالمية الثانية بوقـت قصـير ، إلا أن ضغط مقتضيات الحرب أدى إلى استعمالها فى عمليات نقل الجنود .

فى أواخر عام 1944 كانت أوضاع الجيش الألمانى فى بولنـــدا مترديـة للغاية ، تسير من سيئ لأسوأ ، كما أصبح عـدد كبير من عمال بنـاء السـفن الحربية فى بولنـدا مهددين بالأسـر إذا لم يتم إخلاؤهم بأقصى سرعـة !!

وفى يوم من أشـد الأيام زمهريرًا ، وفى أواخر يناير عـام 1945 تمـت عملية تحميل السفينة .. صعـد على متنها نحو أربعة آلاف من أمهر رجال بناء السفن ، من مهندسين وعمال ، وعـدة آلاف أخرى من الألمـان الشرقيين ، ثم أبحرت السفينة "ويليهام جوستلوف" من ميناء "جداينـا" البولنـدى.

وبعـد أن اختفت فى عرض البحر ، وبعد نحو سـاعتين مـن إبحارهـا ، أصيبت السفينة بقذيفة طوربيـد بحرى أطلقتـه غواصة سوفيتية من طراز S-13-30 ، مما أصاب السفينة إصابة مباشرة ، ولم يمض وقت طويل حتى كانت السفينة تأخـذ طريقها حثيثًا نحـو قاع البحر ، بمن عليها من الركاب !!

فى 18 فبراير ، سمـع العالم لأول مرة مأساة تلك الباخرة من محطة إذاعـة راديو فنلنـدا ، وكان بيانًا مقتضبا ، أفـاد بأن الباخرة "ويليهام جوستلوف" ، قد غرقت ، وقدر ضحاياها بحوالى 7700 شخص.

وبعـد يومين من إذاعـة النبـأ صدر عـدد 20 فـبراير مـن صحيفـة "سيفنسكا داجفيادت" التى كانت تصدر فى مدينة ستوكهولم ، وفيه تقريـر عـن الحادث ، جاء فيه أن 945 شخصًا بقوا على قيد الحيـاة ، قـرروا جميعـا أن السفينة كانت تحمل نحو عشرة آلاف شخص راحوا طعامًا للأسماك ، ولم ينـج منهم سوى هؤلاء !!

كذلـك ذكرت "نيويورك تايمز" فى عـددها الصادر فى 19 فـبراير عـام 1945 أخبارًا قصيرة جـدًا عن ذلك الحادث المروع .. والغريب أنـه علـى الرغـم من فداحته لم تكتب الصحف والمجلات عنه فى تلك الحقبة من الزمـن سوى أسطر قليلة جـدًا.

وقـد ذكـر الباحثون الذين ألفـوا كتاب "حوادث العالم التاريخية" أن السفينة المذكورة غرقت فى 18 فبراير ، نفس اليوم الذى أذاعت فيه إذاعـة فنلنـدا نبأ غرقـها !!

وذكـروا أيضا أن ضحايا الحادث بلغ عـددهم 4120 غريقـا ... وقـد تعرض هذا التقدير لنقـد كثير .. واتضح فيما بعد أن عـدد الضحايا الحقيقـى بلغ أضعاف ذلك !

وممـا يدعوا إلى الرثـاء ، أن حمـى الحرب العالمية الثانية التـى كـانت تجتاح العالم آنذاك ، شغلت الناس عن أن يذرفوا دمعة أسـف واحـدة علـى ضحايا تلك المأسـاة ، ومرت وكأنها شـىء عـادى !!

وهنـاك كوارث بحرية أخرى راح ضحيتها آلاف القتلـى .. منهـا:

* غرق السفينة الألمانية "كاب أركونا" فى الثالث من شهر مايو من عـام 1945 والمحملة بأعـداد غفيرة من المعتقلين والذى بلغ عـددهم نحـو 4650 ، وذلك بعد أن تعرضت للقـذف من طائرة بريطانية ، كان ذلك عنـد مينـاء "لوبيك" شمالى ألمانيا ، ببحر البلطيق.

* وفى نوفمبر من عام 1947 غرقت سفينة صينية وعلى متنها أكثر من سـتة آلاف من الجنود المنادين بالاستقلال من منشوريا ، وذلك بالقـرب من ميناء "ينجكـو".

* فى السابع من عشر من شهر يونيو من عام 1940 غرقت السفينة البريطانيـة "لانكاستريا" وهى محملة بنحو أربعة آلاف من الجنود ، قبالة مدينـة "سـان نازير" الفرنسية.

* فى السابع من أبريل من عام 1945 أغرقت السفينة الحربية اليابانية "يامـاتو" قبالة جزيرة كيوشـو ، وكان على متنها 3033 راكبا.

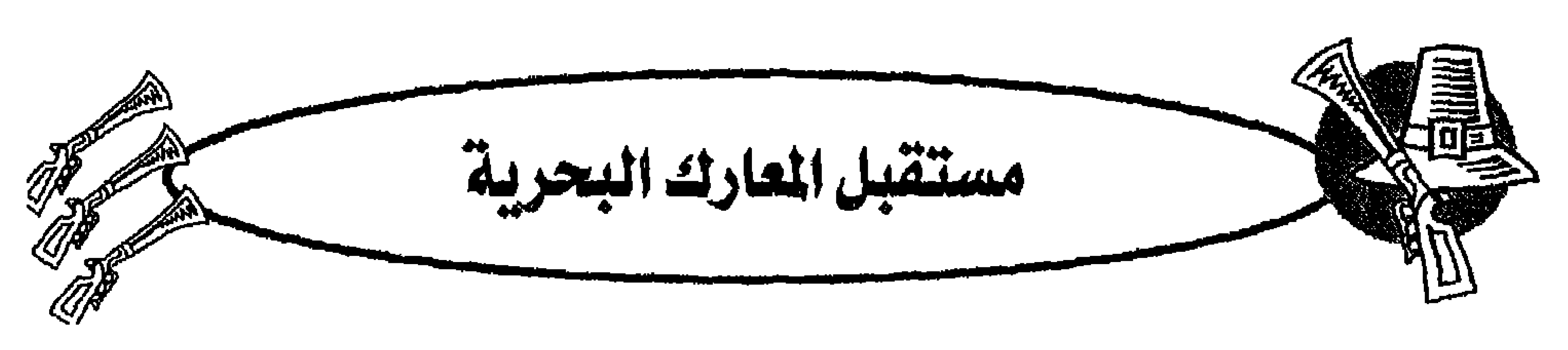
* فى الثالث من ديسمبر من عام 1948 ، ارتطمت السفينة "كيانجيا" المحملـة عن آخرها بنحو ثلاثة آلاف لاجئ ، بلغم يابـانى بعيـدًا عـن "ووسـونج" الصينية.

* قبل ذلك بنحو ثلاث سنوات (فى مايو من عام 1945) غرقت السفينة (Thiebeck) المحملة أيضا بنحو ثلاثة آلاف لاجئ ، وذلك أثناء القذف البريطانى لميناء "لوبيك الألمانى" وذلك قبيل انتهاء الحرب العالمية الثانية.

* فى الرابع والعشرين من أكتوبر من عام 1944 تعرضت السفينة اليابانية "أرسان مارو" إلى قصف من طوربيد من البحرية الأمريكية فى بحر الصين الجنوبى .. كانت السفينة محملة بنحو ألفين من الأسرى الأمريكيين.

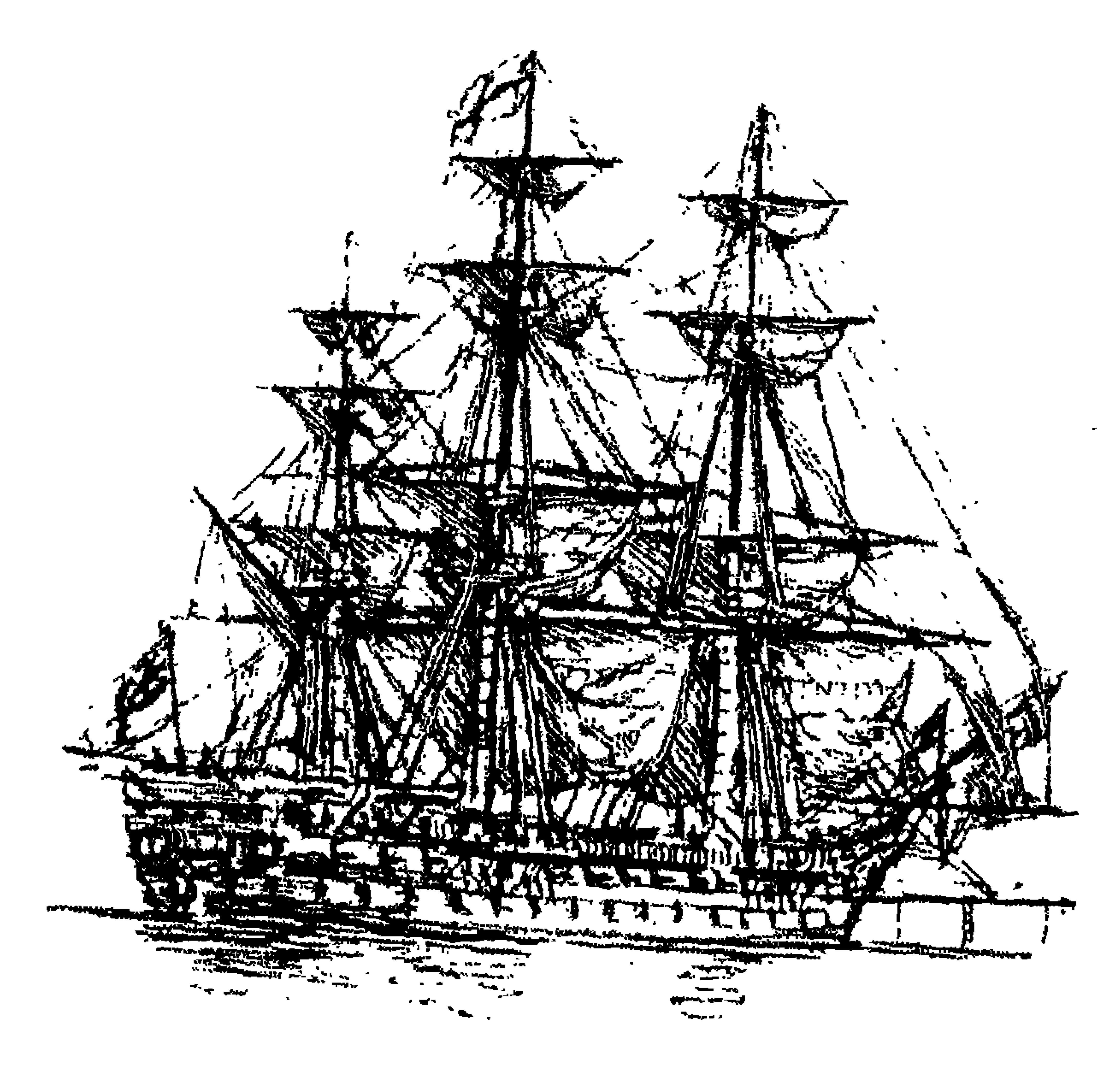
* فى السادس من ديسمبر من عام 1917 ، اصطدمت السفينة الفرنسية "مونت بلاك" المحملة بالذخيرة ، بالباخرة البلجيكية (IMO) ، مما أدى إلى انفجارها فى المحيط الأطلنطى قرابة "هاليفاكس" نوفاسكوشا ، كندا.

* وقد شهدت الحرب العالمية الثانية وحدها (1939-1945) غرق 3843 سفينة فى المحيط الأطلنطى وحده بلغ مجموع حمولتها نحو سبعة عشر مليون طن . . وكان شهر يونيو من عام 1942 هو أسوأ فترات تلك الحرب ، إذ فُقد فى هذا الشهر وحده 131 سفينة ، حمولتها نحو 655000 طن ، وذلك فى المحيط الأطلنطى وحده ، علاوة على 42 سفينة حمولتها نحو 182000 طن فقدت فى أماكن أخرى من نفس الشهر.



شهــدت المعارك البحرية تطورات هائلة في الماضي مــن القــوارب ذات المجاديف، إلى القوارب ذات الشراع ، إلى استخدام معظم وسائل القتـــال فــي المعارك البرية من فوق سطح القوارب على سطح المياه.

ولكن اختراع البارود واستخدامه في المعارك كان نقطة تحول مهمــة فــي الحروب والمعارك البحرية . وكما أن دول الشرق والدول الإسلامية لم ترحــب



باستخدام البارود في إعــداد أسلحة المعارك البرية فهي قــد رفضــت أيضــا استخدام البارود في إعداد ذخائر أسلحة المعارك البحرية مع العلم بأن الرجـــل الذي اقترح على الملك فرديناند والملكة إيزابيلا في البرتغال لاستخدام البـــارود

في إعداد ذخيرة أسلحة المعارك البرية كان رجلا عربيا كان قد سافر إلى الصين ووجد أنهم يستخدمون البارود على نحو بدائي في إعداد ذخائر للرمي بها على الأعداء ، وذلك أن العرب لم يرغبوا في التخلى عن أسلحة الحرب التقليدية آنذاك المتمثلة في امتطاء الخيول وامتشاق السيوف والرماح، والرمي بالنبال مما اضطر الرجل إلى العبور إلى البرتغال حيث اهتم الملك فرديناند والملكة إيزابيلا بما اقترحه عليهما من استخدام البارود في إعداد ذخيرة يتم رميها على الأعداء لتحدث بهم إصابات جسيمة.

وقد أطلق العرب اسم "البارود" على المادة المتفجرة التي تتكون من نترات البوتاسيوم أو الصوديوم (ملح البارود) مع خلطها بالفحم والكبريت لكي تكون جاهزة للاستخدام في الحرب . وقد ظهرت كلمة البارود أول الأمر عند الشعوب الموجودة بالهند ، ثم انتقلت إلى بلاد المغرب والبرتغال والبلقان. ولكن العرب أهملوا استخدامها وتطويرها وإجراء التجارب للوصول إلى أفضل استخدام لها ترفعا عن استخدام أساليب في الحرب لا تعتمد على الحصان والسيف أساسا مع الأسلحة التقليدية الأخرى المعروفة لهم ولأسلافهم من قبلهم.

وينسب مؤرخو الغرب اكتشاف البارود إلى راهب ألماني يدعى "برتولد شفارتز" اهتم بعمل تجارب على البارود حوالي عام 1354م (755هـ) ، كما يزعم بعض المؤرخين اهتمام "روجر بيكون" الإنجليزي بتصميم بعض التجارب لتطوير البارود ، ويتسع اكتشاف البارود لصنع ذخائر الحرب لكل هذه الآراء دون ريب ، فليس ثمة ما يمنع من إجراء تجارب لتطوير البارود هنا وهنالك. وكل ما يلزم إثباته دون شك هو أن بدء اكتشاف البارود قد تم في الصين ، ثم انتقل إلى الهند ، وإلى بلاد العرب وإلى شمال إفريقيا ، وكان العرب يطلقون عليه في البداية اسم "ملح الصين" أو "ثلج الصين" باعتبار أن الصين هى مصدره الأول.

وأهم ما يلزم إثباته بشأن البارود هو أن العرب قد عزفوا عن استخدامه في ذخيرة أسلحة الحرب ، وأن دول أوربا منذ عهد الملك فرديناند والملكة إيزابيلا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي ، قد أبْدت اهتماما كبيرا بتطوير صناعة البارود مما أسهم في تطوير أسلحة الدول الأوربية ، وأفضى إلى هزيمة العرب في الأندلس وخروجهم منها ، وبدأ التفوق في الميزان العسكري يميل لصالح الدول الأوربية ، ولكن إدخال البارود في تسليح السفن الحربية كان أشد خطرا وأبعد مدى ، إذ جعل من الميسور على عدد قليل من الملاحين باستخدام البنادق والرصاص أن يسيطروا على شعوب بدائية في أمريكا الشمالية والجنوبية وفي إفريقيا واستراليا ، كما جعلت الأسلحة النارية لأساطيل الدول الأوربية اليد العليا في المعارك البحرية.

وكان عصر البخار بعد عصر الفحم تطويرا خطيرا وبالغ الأهمية في بناء السفن الحربية ، وكذلك اكتشاف المغناطيسية والكهرباء ، ثم الطاقة الذرية ، ثم الصواريخ والألغام والغواصات والقنابل الذرية ، بحيث أصبحت الأساطيل البحرية الحديثة تتحرك بالطاقة الذرية وتستخدم الصواريخ والقذائف الذرية.

وأفضت المعارك الحربية المتتالية في شتى أنحاء البحار إلى تطوير الوحدات الداخلة في تشكيل الأساطيل البحرية التي أصبحت تضم المدمرة Destroyer والفرقاطة Frigate ، والطراد Cruiser ، والغواصة Submarine ، وحاملة الطائرات Carrier ، وأصبحت السفن الحربية تستخدم الطوربيدات الموجهة Homing Torpedo وتحمل قاذفات الصواريخ Missile Firing وغيرها من الأسلحة البحرية.

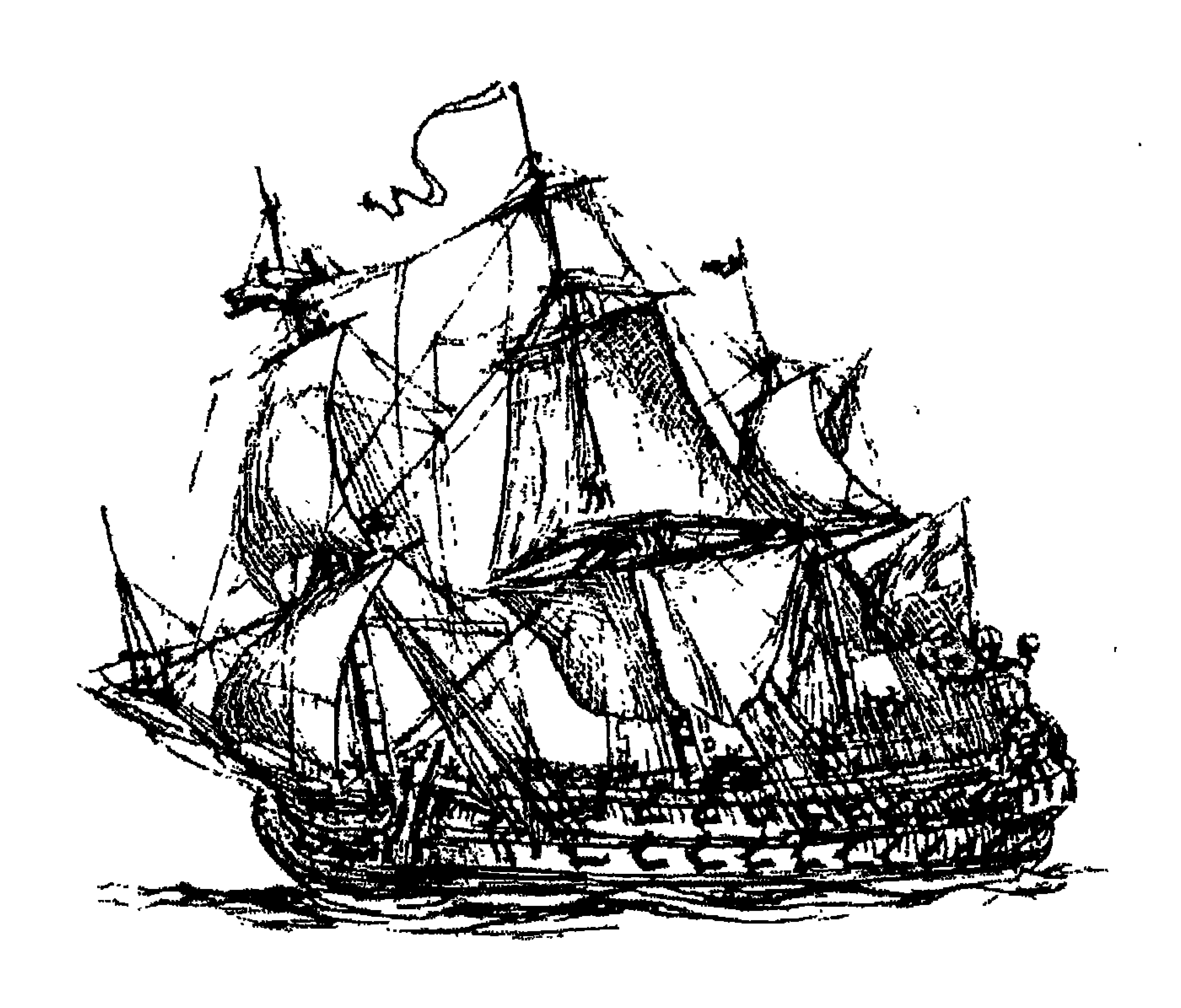
ولقد كان التنافس بين روسيا والولايات المتحدة الأمريكية ودول الأطلسي شديدا لامتلاك أقوى الأساطيل والأسلحة البحرية ، وكان وصول الأسطول

الروسي إلى مياه أي دولة من الدول المحايدة يشكل حدثا مهما تراقبه بكل اهتمام الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها في حلف الأطلنطي ، كما كانت البحرية الروسية تراقب جيداً كل جديد في أسلحة الأساطيل المملوكة للولايات المتحدة والدول الغربية.

ومنذ وصول جورباتشوف إلى الحكم في روسيا في عام 1985م بدأت مرحلة انحلال وانهيار الاتحاد السوفيتي معلنا انتهاء الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها ، وسرعان ما تساقطت أنظمة الحكم الشيوعية في أوربا ، في ألمانيا الشرقية وبولندا وتشيكوسلوفاكيا والمجر ، وغيرها من دول أوربا ، دون أن يمنع هذا من احتفاظ روسيا بأسطول بحري قوي ، كما أن روسيا بالرغم من الوفاق مع الولايات المتحدة الأمريكية لا تزال تحتفظ بسلاحها النووي وصواريخها العابرة للقارات ، وكل ما في الأمر أن روسيا قد بادرت إلى طلب الوفاق والتبادل التجاري والمعونة الاقتصادية من الولايات المتحدة الأمريكية ودول المعسكر الغربي ، مما جعل الصراع القوي يتلاشي بين المعسكر الشرقي بزعامة روسيا والمعسكر الغربي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية.

ولا شك أن هذا الوفاق بين المعسكرين يتضمن عدم منافسة روسيا للولايات المتحدة أو غيرها من الدول الغربية في أي منطقة خارج نطاق الاتحاد السوفيتي السابق مما جعل للولايات المتحدة الأمريكية الهيمنة السياسية على جميع دول العالم بحيث لا تستطيع أي دولة أن تتحدى الهيمنة الأمريكية أو العمل ضد المصالح الأمريكية في أي مكان في العالم.

وربمـــا تطلبت هذه الهيمنة الأمريكية ، باعتبار أنها القوة الأعظم بالمقاييس المادية العسكرية ، أن تحافظ أمريكا على تفوق أساطيلها البحرية ، وخصوصـــا حاملات الطائرات والأسلحة النووية ، لتكون قادرة على ردع أي دولة تحـــاول التمرد على الهيمنة الأمريكية.



أهم المراجع

1- Great Sea Battle, By: Oliver Warner- Spring Books.

2- History of The Second World War, by: Henry Steel Commager, Pocket Book, New York.

3- A Dictionary of Modern War, By: Edward Luttwak, Harber of Row, New York.

4- The V N R Dictionary of Ships and The Sea, By: John V. Noel, Van Nostrand Reinhold Company.

٥- البحر في الاستراتيجية الحديثة – تأليف ل . و . مارتن ترجمة العقيد بحرى متقاعد : عبدالحكيم الحاج عناد – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت .

٦- الحرب العالمية الثانية – مجموعة من الباحثين – دار الآفاق – بيروت .

٧- تاريخ أوربا المعاصرة – تأليف : محمد عبد الرحيم مصطفى وكامل جرجس – المطبعة الأميرية بالقاهرة .

٨- معالم تاريخ الإنسانية – تأليف : هـ . ج . زيلز – ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد – الألف كتاب .

٩- التاريخ الإسلامي العام – تأليف الدكتور على إبراهيم حسن – مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة.

١٠- مقتطفات من تاريخ العالم – تأليف: جمال الكاشف –دار الطلائع بالقاهرة.

١١- ماهية الحروب الصليبية – تأليف: د. قاسم عبده قاسم – عالم المعرفة الكويت.

١٢- القاموس الإسلامي – تأليف: أحمد عطية الله – مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة.

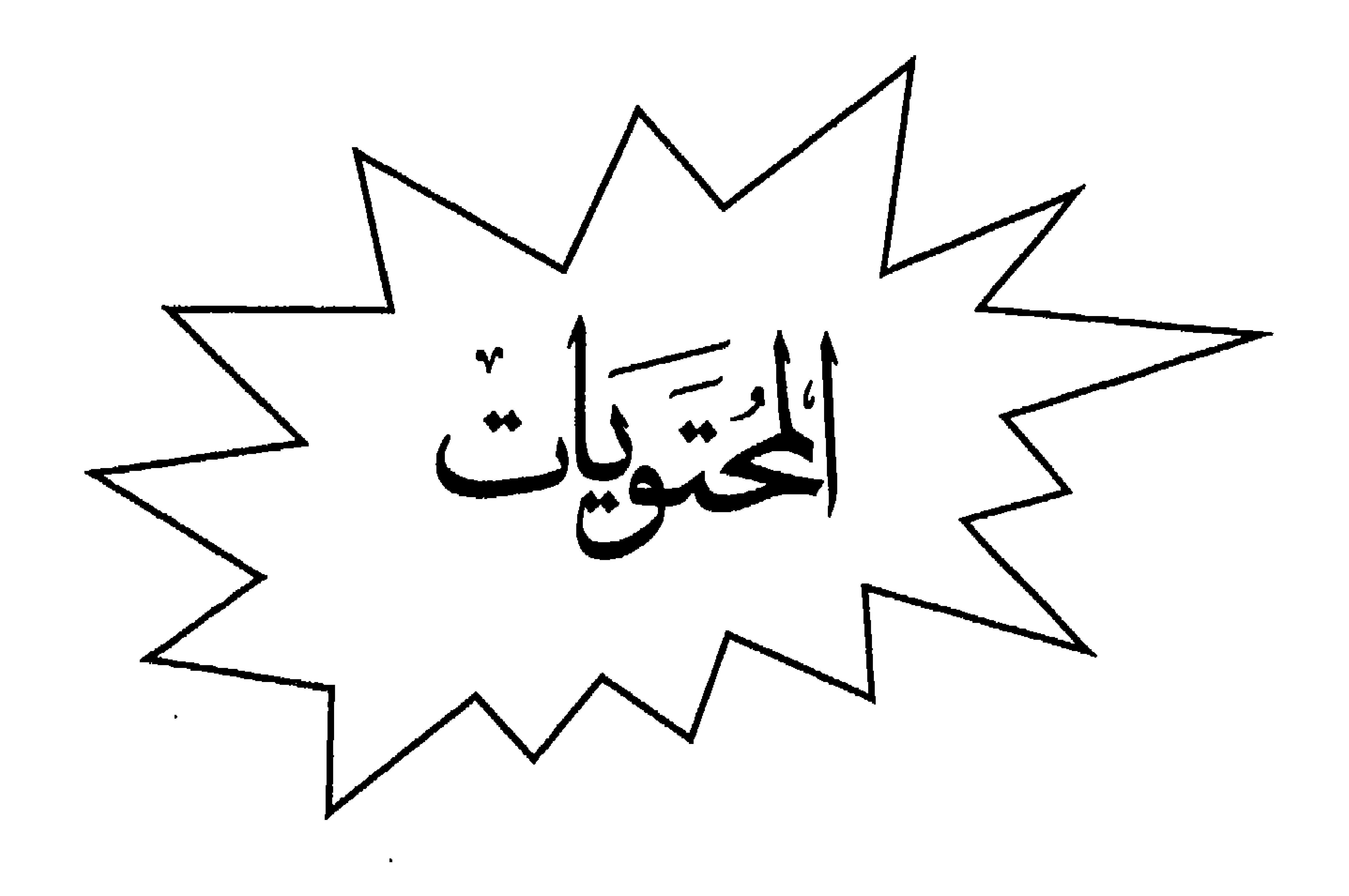
١٣- بونابرت في مصر – تأليف : كريستوفر هيرولد – ترجمة: فؤاد أندراوس – الهيئة العامة للكتاب.

١٤- المعارك المصرية على الجبهة المصرية – تأليف : جمال حماد – الزهراء للإعلام العربي بالقاهرة.

١٥- تاريخ العرب – تأليف : دومينيك سودردك – ترجمة الدكتور على مقلد – المنشورات العربية – بيروت.

١٦- موجز تاريخ العالم بالسنوات والأحداث – محمد غريب جودة – مكتبة القرآن بالقاهرة.

١٧- علم المحيطات – تأليف كيث سنو – ترجمة الدكتور ت . عناد أحمد – إصدار جامعة البصرة بالعراق.


المُحتَوَيَاتُ

هذا الكتاب

قبل أن يدخل سلاح الجو فى الحروب والقتال كانت المعارك البحرية هى مكمن الخطورة فى أى نزال ، وذلك لأن الدولة التى تملك السيطرة على البحر يصبح لديها القدرة على الوصول إلى أى موقع وعمل المواجهات المؤثرة التى قد تؤدى إلى احتلال الموقع أو ضرب هدف معين أو تحقيق مصالح من أى نوع !!

ومن ثم استطاعت دول كثيرة أن تفرض سيادتها على العالم من منطلق قوتها فى البحر .

وقد حفلت الحروب البحرية بكثير من المفاجآت والمفارقات التى نتجت عن الخطط الذكية التى عكف على دراستها مجموعات العسكريين فى كل طرف .

ويقدم هذا الكتاب مجموعة كبيرة من المعارك البحرية التى كان لها أثر كبير على تغيير مجرى التاريخ فى كثير من المناطق فى العالم ، وكيف تمكنت دول مهزومة فى البرّ أن تحول هزيمتها إلى نصر عن طريق البحر !

وتحدث الكتاب عن ظروف كل معركة من حيث الأسباب ... أدت إلى وقوعها ، والتكتيكات التى استخدمت فيها ، والـ... النهائية التى وصلت إليها هذه المعارك .

إنها سلسلة من الأحداث التاريخية الدامية عبّر عنها ... بأسلوب جذاب وفى تسلسل تاريخى من الأقدم إلى الأحدث ... تصل المعلومة إلى القارئ بشكل مريح .

نرجو أن يكون هذا الكتاب إضافة تاريخية للقارئ العزيز .

الناشر

